قطـــــرات

من الفلسفة الحديثة

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد رشاد عبد العزيز دهمش

عميد كلية الدراسات الاسلامية

بجامعة الازهر

١٤١٩هـ-١٩٩٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

التصدير

(يؤتى الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً)، قرآن كريم.

(إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد أما التعمق فى الفلسفة فيرده إلى الدين)، "فرنسيس بيكون".

(تقاس حضارة الأمة و ثقافتها بمقدار شـــيوع التفلســف الصحيح فيها)، دينيه "ديكارت".

(إن أجل نعمة ينعم الله بها على بلد من البــلاد هــى أن يمنحه فلاسفة حقيقيين)، "ديكارت".

(الفلسفة أولها محبة العلوم و أوسطها معرفة الموجـــودات جهدا لطاقة الإنسانية و آخرها القول و العمل بما يوافـــق العلم)، إخوان الصفا.

(الغاية من الفلسفة هى معرفة الخالق تعالى و أنه واحــــد غير متحرك و أنت المرتب لهذا العلم)، فيلسوف مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد النبى الأمين و على آله و صحبه و من اهتدى بهديه و اتبع طريقه و سار على نهجه إلى يوم الدين. و بعد.،،

فتاريخ البشرية تعاقب مستمر لأفكار إنسانية متعددة تختلف باختلاف الأجناس و الألوان كما تختلف باختلاف الزمان و المكان و لم تخب أنوار المعرفة على مر الأيام و تتابع الحضارات، فإذا اخفت هذه الأنوار فى موقع فسرعان ما تتلألأ هذه الأنوار فى موقع آخر، فحركة الفكر متواصلة و أنواره دائما متوهجة و من البديهى أن يشارك فى بناء صرح المعرفة الإنسانية كل فكر بناء و كل فلسفة تابعة من ضمير الأمة و من وجدانها الخفاق و من أفئدة فلاسفتها الأفذاذ و إذا كان لكل أمة من الأمم

فلسفة خاصة بها تحمل سماتها المميزة و آماراتها الواضحة تعبر عن أفكارها و تجسد وجهة نظرها في الكون و في الحياة و في الإنسان فإن هذه الفلسفة المختلفة لهذه الأمم تصب -في نهاية الأمر- في ذلك المجرى العظيم الذى تتجمع فيه مختلف الأفكار فيسارع بتنقيتها و تهذيبها و احتضان النافع منها و المفيد فيها ليشيد على هاماته الصرح الحضارى للأمم جميعا.

و لقد بدأت طلائع المعرفة في هذه العصور البعيدة حيث أشرقت شمسها في ربوع اليونان ثم تتابع موكبها يحمل خلاصة فكر بشرى بناء قام بدعمه و تطوره و رفعه قدما فكر إسلامي خلاق سرعان ما تردد صداه في جنات أوروبا و ظهرت ثماره اليانعة في تلك الحضارة الحديثة و في أفكار رجال و فلاسفة أوروبا.

أحل كل تأثير فلاسفة الإسلام عظيما على أوروبا و كــان من القوة و من الوضوح بحيث لــم يسـتطيع أصحــاب الضمائر الحية من المفكريــن الأوروبيين الأحــرار أن يخفوه أو يهملوه أو يتنكروا له بل انطلقت أقلامهم تتحـدث عنه و تشيد به و تعترف بفضله عليهم.

يقول المفكر "رينيه ميليه": لقد جاء المسلمين جميعا فــي بحث جديد يتفرع من الدين نفسه هو مبدأ التأمل و البحـث و قد مالوا إلى العلوم و برعوا فيها و هم الذين وضعــوا أساس علم الكيمياء و قــد وجــد منــهم كبــار العلمــاء و الأطباء.

و يقول الدكتور "فرنثو رونثال": إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التجريبية ضمــن دائرة ملاحظاتهم و اختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشــاطا

و اجتهادا عجيبين حين يلاحظون و يمحصـــون و حيـــن يحسون و يرتبون ما تعلموه من التجربة[1].

و يقول "بريفولت" فى كتابه "بناء الإنسانية"[2]: إن ما يديـــن به علمنا لعلم العرب ليس فى ما قدموه إلينا من كشـــوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب، بل يدين هذا العلم إلـــى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفســـه فالعالم القديم كما رأينا لم يكن للعلم فيه وجـــود، و علـــم النجوم عند اليونان و رياضاتـــهم كـــانت علـــوم أجنبيـــة استجلبوها من خارج بلادهم و أخذوها عن سواهم و لـــم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجـــا كليـــا بالثقافـــة اليونانية، و قد نظم اليونان المذاهب و عممـــوا الأحكـــام

---

[1] من ص ١٠٨ د/محمد رشاد عبد العزيز: مدخل للفلسفة الإســـلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

[2] بقلا عن د/عبد الحليم محمود: من كتـــاب التفكـــير الفلســـفى فى الإسلام.

و وضعوا النظريات و لكن أساليب البحث فى دأب و أنـلة و جميع المعلومـات الإيجابيـة و تركزهـا و المنـاهج التفصيلية للعلم و الملاحظة الدقيقة المسـتمرة و البحـث التجريبى، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونـانى و لم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فـى الإسكندرية فى عهدها البليبى.

أما ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوروبا لروح من البحثـة جديدة و لطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربـة و الملاحظة و المقاييس و لتطور الرياضة إلى صورة لـم يعرفها اليونان و هذه الروح و تلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى[1].

و يقول "جوستاف ليون": إنه كان للحضـارة الإسـلامية تأثير عظيم فى العالم، و أن هذا التأثير خـاص بـالعرب

---

[1] أنظر محمد إقبال: فى تجديد الفكر الدينى، ترجمة العقاد.

وحدهم، فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التـــى اعتنقــت دينهم، و العرب هم الذين هزموا-بتأثيرهم-البرابرة الذيــن قضوا على دولة الرومان، و العرب هــم الذيــن فتحــوا لأوروبا ما كانت تجهله مـــن عــالم المعــارف العلميــة و الأوروبية و الفلسفية فكانوا أئمة لنـــا و أســاتذة ســتة قرون.

و لقد ظلت ترجمان كتب العرب و لا سيما الكتب العلميــة مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمســة قرون أو ستة قرون، و إذا كانت هناك أمـــة تقــر بأننـــا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هــم تلــك الأمة فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعــهم فـــى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا[١].

---

[١] راجع ص ٢٢٣ د/سليمان دنيا: التفكير الفلسفى فى الإسلام.

هذا و من المعروف أن الفكر الإسلامى قد أثـــر تـــأثيراً كبيراً فى أوروبا حيث انتقل المنهج التجريبى الإســـلامى إليها فأقامت عليه حضارتها الشامخة، فقد كانت أســـبانيا المعبر الأكبر لهذا المنهج الذى وصل إلى فرنسا و ذلـــك عندما تكونت فى طليطلة أول مدرسة لترجمـــة الفلســفة العربية و العلم العربى و كانت هى الجسر الكبـــير لنقـل هذا التراث و قد وصل علم العرب إلى جامعات فرنســـا و جامعة باريس على وجه الخصوص، كما كانت صقليـــة أيضا معبراً آخر حيث أقبل عدد كبير من الإنجلـــيز إلـــى أسبانيا و تعلموا العربية و شاركوا فى حركة نقل الـــتراث و بخاصة الجانب العلمى، ثم تنبه "روجر بيكـــون" إلـــى أهمية العلم العربى و كان من رواده الأوائل، فنقل الكثـــير إلى إنجلترا و اكسفورد بالذات و سواء أكان "بيكون" قـــد عرف العربية أم لم يعرفها فإنه عرف المنهج الإســـلامى التجريبى و كان ينادى بأن معرفة العرب و علمـــهم هـــو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريـــه، هـــذا و مـــن

الثابت أن "روجر بيكون" نقل إلى إنجلترا عدداً كبيراً من الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية و قد ألهم "روجر بيكون" "فرنسيس بيكون" أول تجريبى حقيقى فى العصور الحديثة ثم وجد المنهج الإسلامى التجريبى كاملاً فى كتابات "جون استيوارث مل"[١].

هذا و قد تعمدت الإطالة فى الحديث عن التأثير الفعال لفكر المسلمين فى اوروبا كى يقف أبناؤنا على ما قدمه أسلافهم العظام فى خدمات جليلة للإنسانية جمعاء حيث شيدت أوروبا حضارتها العملاقة على علم المسلمين و أفكار المسلمين و فلسفة المسلمين و منهج المسلمين و نقلت–فى الوقت نفسه–نظر أبنائنا إلى الاهتمام بالدراسات الفلسفية فى تطورها و متابعة قافلتها من خطواتها الأولى و ذلكم من الأهمية بمكان كى نتابع الفكر

---

[١] أنظر ص ٤٤–٤٥ من نشأة الفكر الفلسفى ف الإسلام، على سامى النشار جـ ١.

البشرى من نشأته و تطوره و تتابع تواصل الأجيال عبر هذا الفكر و كى نفهم التيارات الفكرية و الأيديولوجيات المنتشرة فى العالم شرقه و غربه كى نكون على علم مما يدور بيننا.

نعود مرة أخرى فنقول: إن الفكر الإسلامى قد أثر فى نشأة الفكر الغربى تأثيراً عظيماً حيث تلقى الغرب تراثنا الفكرى العظيم فاستبقى منه ما يفيد و استبعد منه ما يريد ثم حور و طور و عرف كيف يفيد من علم المسلمين و كيف يشتق منه مناهج البحث و طرائق التفكير و أنماط متعددة للحياة.

و إذا كان الغربيون قد أقاموا نهضتهم الحديثة على التراث العربى كوسيط بينهم و بين أسلافهم من اليونان، فلا بأس إذن أن نقبل إسهام الفلسفة الحديثة فى بعث نهضتنا من جديد كوسيط بيننا و بين تراثنا الإسلامى،

و أنا لا أقصد بالوساطة هنا مجرد النقل الآلى عن الغـير فنكون مجرد مقلدين لغيرنا، و إنما أقصد التمثل و الـهضم و الاستيعاب و النقل بشكل أكثر ملائمة لـروح العصـر و هو ما يمكن التعبير عنه باللقاح الفكرى بين الثقافات.

و التحفظ الوحيد الذى يجب أن نضعه نصب أعيننا هو أن يكون تناولنا للفلسفة الحديثة تنـاولاً موضوعيـاً يـبرز السلبيات كى نسقطها من حساباتنا، و نلقى الضوء علـى الإيجابيات كى نأخذ بها و نتعامل معها و تطورهـا كـى تتفق مع ظروف حياتنا و منهج سلوكنا و أصالة تقاليدنـا و يومها نقول للأجيال القادمة (هذه بضاعتنا ردت إلينا).

هذا و الله أسأل أن يوفقنا لخدمة ديننا و وطننـا و أمتنـا و أن ينفع-بهذا البحث-طلاب العلم و عشـاق المعرفـة و أن يجعله فى ميزان حسناتنا (يوم لا ينفـع مـال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)، (ربنـا لا تؤاخذنـا إن

نسينا أو أخطأنا، ربينا و لا تحمل علينا إصراً كما حملتـــه على الذين منَ قبلنا، ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا بـــه، و اعف عنا و أغفر لنا و ارحمنا أنت مولانـــا فانصرنـــا على القوم الكافرين).

دكتور/محمد رشاد عبد العزيز دهمش

الفصل الأول

١-العوامل التى مهدت لظهور الفلسفة

٢-نقد أوروبا لمنطق أرسطو

٣-نقد البرجماتية للمنطق القديم

٤-مقدمات النهضة

٥-التيارات الفلسفية فى عصر النهضة

٦-الفلسفة الحديثة

٧-مميزات الفلسفة الحديثة

الفصل الأول

العوامل التى مهدت لظهور الفلسفة الحديثة

قلنا–فيما سبق–إن تأثير الفلسفة الإسلامية علـــــى الفكــــر الفلسفى الأوروبى كان عظيماً حيث انتقلت هذه الفلســـفة–عبر منافذ متعددة–إلى الغرب الذى سرعان مـــــا تفـــاعل معها و تفاعل بها و انطلق من أفكارها ليصــــــوغ فكـــرة الحديث و فلسفته الحديثة.

هذا و إليكم كيفية انتقال الفلسفة الإسلامية بصفـــــة عامـــة و المنطق بصفة خاصة إلى أوروبا.

موقف الكنيسة من المنطق فى العصور الوسطى

كانت النزعة العامة للكنيسة فى أوروبا باتجـــاه الفلســفة و العلم و المنطق و العلوم العقلية فى العصور الوســطى نزعة عدائية بصفة عامة حيث اضطهدت الكنيســة آداب اليونان و الرومان و علومهم و تجــارب و تعــادى كــل المشتغلين بهذه العلوم و تلك الآداب، و لعل الســبب فــى هذا هو ما يقوله "رابوبودت": إن الكنيسة قد اعتقــدت أن الحقيقة قد وصلت إليها عن الوحى المعصوم فلا معنى أن تسمح للناس بالبحث عنها[١] و ذلك فى العصور الوســطى التى كانت تطلق فى التاريخ الأوروبى على الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس الميــلادى و أواخــر القــرن الحادى عشر الميلادى حيث سادت أوروبا فى هذه الفــترة سحابة كثيفة من التــأخر الحضــارى و انتشــر الجــهل و كثرت الخرافات و ذلك يرجع إلى سقوط الإمبراطوريـة

---

[١] مبادئ الفلسفة ص ١١٦ ترجمة أحمد أمين.

اليونانية عام ٤٧٦ ميلادى و قد جاء مصحوبا بقيام عـــدد من الممالك الجرمانية الجديدة التى أقامت بـــها شــعوب البرابرة مما أدى إلى انكماش الحضارة الرومانية[١].

هذا و قد تغير موقف الكنيسة بعد هذا العداء فـــأرادت أن تقوم بتسخير الفلسفة و المنطق لخدمة عقيدتها و لذلك فقـد اتجهت إلى الفلسفة و المنطق و أخذت منها ما يســـاعدها على تبرير عقائدها و الإقناع بها بينما رفضت كـــل مـــا يتعارض مع العقيدة المسيحية.

<u>فمن الفلسفة</u>: أخذت أفكار أفلاطون الفيلسوف اليونـــانى الشهير و ذلك لما فيها من نزعة حلولية تتفق مع عقـــائد النصارى فى الاتحاد و الحلول.

---

[١] د/سعيد عاشور ص ٣٧ (المدينة الإســـلامية و أثرهـــا فى الحضـــارة الأوروبية عام ٩٦٣م).

و من المنطق: أخذت الجانب الشكلى من أول المقـــولات إلى آخر التحليلات الأولى و الأقيسة و حرمـــت قـــراءة القسم الأهم من المنطق و هو القسم المـــادى مـــن بدايـــة التحليلات الثانية إلى نهاية المنطق ذلك أن القسم المـــادى من المنطق يهدف إلى البحث عن الحق لذاته و يفرق بيـن الكلام البرهانى و اليقينى و الجدلى و الخطابى و الشعرى و بين ماهية العلم اليقينى و شروطه كما يفرق بينه و بيـن مجرد الإيمان و التسليم، و من هنا فقد رفضت الكنيســـة هذا القسم حتى لا يستطيع المعتقد أن يفرق بين المنطقـــى و اللامنطقى من العقائد، و اهتموا بالقسم الأول لأنه القسم الشكلى الذى يستفيدون منه فى المحاورات و المجـــادلات و غرس العقائد فى نفوس الأتباع.

و فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا لا تعرف شـــئ عـــن منطق "أرسطو" كعلم متكامل و لا علم لها بفلســـفته كـــان المسلمون يقيمون بناءاً منطقياً متكاملاً حتـــى قـــال أحـــد

الكتاب: (إن العصر الذى اطلع فيه الرشيد و المأمون على خبايات الفلسفة اليونانية و الفارسية هو العصر نفسه الذى كان فيه "شارلمان" و زمـــلاؤه فـــى الغـــرب الأوروبـــى يحاولون أن يتعلموا كيف يكتبون أسماءهم[1].

و فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى أفاق الغرب من غمة العصور الوسطى و خلع ثياب الحجب الكثيفة التـــى ألقت عليه ظلالاً من الجهل و الجهالة ليجد نفســـه أمـــام حضارة إسلامية شامخة البناء و أمام منهج علمى لم يسمع به من قبل، و من هنا هرع طلاب العلم و المعرفة مـــن مختلف أنحاء أوروبا إلى العالم الإسلامى لكـــى يتتلمـــذوا على يد المسلمين و ينهلوا من حضارتهم المتقدمة، فجـــاء "روجر بيكون" إلى العالم الإسلامى-و هو أول من دعـــى إلى استخدام المنهج التجريبى فى أوروبـــا-فنـــهل مـــن الموارد الإسلامية و تتلمذ على يد مفكرى الإسلام العظام.

---

[1] ص ٤١ د/سعيد عاشور المرجع السابق.

كما جاء "جيوم الأوكامى" إلى المسلمين فقرأ كتبهم و أخـذ عنهم و نقل منهم و كان سبباً قوياً فى حركـــة الإصـــلاح الدينى و الثورة على مفاسد الكنيسة و كانت دعوته مـــن أهم العوامل فى نهضة أوروبا، إذ قام من بعدها "مـــارتن لوثر" و كشف عن فضائح الكنيسة و أسقط عن رأسها تاج القداسة و طقوس التبجيل و دعاوى الاحترام و الإجلال و سرعان ما ظهرت طبقة البروتســـتانت المنقميـــن علـــى الكنيسة[١].

و لقد تتلمذ غير هؤلاء كثير على أيدى المسلمين و نقلـــوا عنهم علومهم و منطقهم بل و ترجموا كل ما اســـتطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين القيمة الأمر الـــذى ترتـــب عليه قيام حركة حضارية شاملة فى أوروبا أطلق عليـــها فى التاريخ اسم "النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر"

---

[١] ص ٩٥ دروس فى تاريخ الفلسفة.

أو اسم "النهضة الوسيطة" أو "عصر التنوير" الـــذى بـــدأ بسبب من العلومَ الإسلامية المنقولة إلـــى أوروبـــا هـــذا و حتى تتم الفائدة يجدر بنا أن نشير إلـــى حركـــة نقـــل المنطق من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية حتـــى يقـــف القارئ الكريم على الأثر العظيم للعلم الإسلامى فى نشـــأة الحضارة الأوروبية.

طرق نقل الفكر الإسلامى إلى أوروبا

لقد انتقل الفكر الإسلامى بصفة عامة و المنطق و الفلسفة بصفة خاصة إلى أوروبا من طرق ثلاثة:

الأول: الحروب الصليبية:

لقد كانت هذه الحروب ابان فترة حساسة من تاريخ أوروبا هى فترة الصحوة مما دفع رجالهم إلى نهب المكتبات و الكتب و الذخائر العلمية الإسلامية ثم نقلها إلى أوروبا و الإفادة منها.

الثانى: الأندلس:

شهدت الأندلس نهضة علمية وقتية و فلسفية حيث كانت المنارة للحضارة الإسلامية و النبراس الذى تشع و كانت القمة التى تمثل الحركة الفكرية فى العالم الإسلامى حيث احتضنت الفلسفة التى

هرعت إليها بعد أن خبت الحركة الفلسفية في المشرق و ذلك بعد وفاة حجة الإسلام الإمام الغزالي و بعد نكبة الفلسفة، و لذا فقد اتجه إلى الأندلس كثير من مفكري الغرب لكي ينهلوا من الثقافة الإسلامية، و ذلك بعد أن تعلموا العربية- لغة العلم آنذاك-ثم أخذوا يتتلمذون على يد عباقرة المسلمين من الفلاسفة و المفكرين، و من هؤلاء الذين قصدوا الأندلس "ايلارد" و "جيرارد" و غيرهم من أعلام الفكر الأوروبي في عصر النهضة.

الثالث: حركة الترجمة:

قام كثير من النبلاء و الهواة بحركة واسعة النطاق تهدف إلى ترجمة علوم المسلمين و لا سيما العلوم الفلسفية و المنطقية، و يرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى كبير أساقفة مدينة طليطلة

الذى أنشأ ديواناً كبيراً لنقـــل المنطـــق و العلـــوم الفلسفية.

و كان من تلامذة هذا الديوان "دونمنيك جونزاليزا" الـــذى عرف فيما بعد بأنه "جند يسالفى" و قد عمل هذا الرجـــل بمساعدة "يوحنا بن داود" أو "يوحنا الشبيلى" الـــذى كـــان ينقل من العربية إلى الأسبانية ثم يقوم "جند يسالفى" بـــالنقل من الأسبانية إلى اللاتينية، و بهذه الطريقـــة اســـتطاع أن يترجم أجزاءً كبيرة من كتاب "الشفاء" للفيلسوف المســـلم الشهير الرئيسى ابن سينا أو الشيخ ابن ســـينا، كمـــا تـــم ترجمة كتاب "إحصاء العلوم" للمعلـــم الثـــانى الفيلســـوف المسلم المعروف الفارابى[1]، كما قام بعض تلامذة طليطلـــة أن يترجم عن العربية كتب "أرسطو" المنطقيـــة و منـــها التحليلات الثانية و شرح "ناسطبوس" و السماع الطبيعـــى و السماء و العالم و كتاب القانون فى الطب لابـــن ســـينا

[1] تاريخ الفلسفى الأوروبية فى العصر الوسيط ص ٩٢، د/يوسف كرم.

و المجسطى لـ "بطليموس" و هو من أمهات الكتب الفلكية و كتاب المناظر للعالم الإسلامى الكبير الحسن بن الهيثم، كما تم ترجمة شرح الفارابى على السماع الطبيعى لـ "أرسطو" كذلك يعتبر "فردريك الثانى" من العوامل الهامة فى نقل المنطق و الفلسفة إلى أوروبا، فقد جاء إلى العالم الإسلامى أثناء الحروب الصليبية و تعلم اللغة العربية و مهر فيها و أعجب بها و أخذ إعجابه يشتد بمفكرى الإسلام فأمر بنقل كل تراثهم، و تحت رعايته تولى "ميخائيل الايفوجى" ترجمة الشارح الأعظم "ابن رشد" حيث قام بنقل معظم تراث ذلكم الفيلسوف العظيم فى المنطق و الفلسفة[١].

كذلك قام "يعقوب بن ماخير" بترجمة خلاصة المنطق لأبن رشد عام ١٢٩٣ م كما ترجم "كلوينموس" سنة ١٣١٤ م الشروح على الجدل و البراهين السوفسطائية و التحليلات

---

[١] ص ١٩٩ و ما بعدها "أرنست رينان"-ابن رشد و الرشيدية.

الثانية كما قام بترجمة تهافت الفلاسفة للغزالى و تـــهافت التهافت لأبن رشد، كما قام "يعقوب بن شخطوب" بترجمــة كتاب "تحليل القياس" و بهذا عرفت أوروبا الفلســفة كمــا عرفت المنطق الأرسطى بعد أن كانت لا تعرف منـــه إلا القسم الأول فقط لدرجة أنهم أطلقوا على القسم الثانى مــن المنطق "التحليلات الثانية و الجـــدل و السفســطة" اســم المنطق الجديد بينما أطلقوا على كتب المنطـــق الشــكلى "المقولات و الجيارة و التحليلات الأولى" اســم المنطــق القديم[١].

هكذا غزا المنطق الإسلامى أوروبا المسيحية فى القـــرن الثانى عشر مما أدى إلى ظهور حركة فكريـــة منطقيــة و فلسفية بلغت من القوة فى القرن الثالث عشر الميـــلادى

[١] تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى ص ٩٧، و انظر كتـاب د/سعد الدين صالح "المنطق و اتجاهاته القديمة".

حداً جعل من ذلك القرن أزهى عصور الفكر الأوروبـــى قبل عصر النهضَة.

ذلك أن ميادين المعارف المنطقية و المنهجية و العلميـــة و الطبيعية والكيميائية و الرياضية و الفلكيـــة و الفلســفية التى ترجمت و نقلت من العربية لفتت أنظـــار المفكريـــن الأوروبيين إلى مدى الفقر الفكرى الذى كـــانوا يعانونـــه بالقياس إلى هذه الكنوز التى انفتحت لهم أبوابـــها علـــى مصارعها و ما أن اطلعوا على علوم المسلمين و منطـــق المسلمين و فكر المسلمين حتى كان لهم شأن آخـــر. لقـــد صدر لهم الفكر الإسلامى فى مجال المنطق ثورة علـــى الجمود الفكرى و التخلف العلمى تمثلـــت فـــى معرفتـــهم بمنطق "أرسطو" ككل متكامل بعد أن كانوا لا يعرفون منه إلا الجانب الشكلى، مما تسبب فى قيام حركة مـــن النقـــد للعقائد النصرانية و وزنها بميزان المنطق الصحيح، كذلك صدر الفكر الإسلامى لأوروبا الثورة المضادة على منطق

"أرسطو"، ذلك أن المسلمين لم يقفوا أمام منطق "أرسطو" موقف الإذعان و التسليم و إنما قاموا بنقده و عارضوه و ابتكروا منطقاً جديداً مما أزكى في الأوروبيين روح النقد و البحث العلمى النزيه فقاموا هم أيضا بحركة أخرى لنقد المنطق الأرسطى.

نقد أوروبا لمنطق "أرسطو"

أحكمت الكنيسة سيطرتها-فى القرون الوسطى-على أوروبا وسيطر رجالها سيطرة تامة على مقدرات الحياة و حكموها بأهوائهم و سادة الأحكام الصادرة من الكنيسة على الناس جميعاً حتى أن البابا "غريفوريوس السابع"[1] أعلن أن الكنيسة هى صاحبة السيادة على العالم كله و أنها تستمد نفوذها من الله مباشرة من غير حجاب و أنها معصومة لا تخطئ و لا تضل أبدا و أن

---

[1] أنظر معالم تاريخ العصور الوسطى، محمد رفعت و آخر.

الإمبراطور ليس-كما يدعى-ظل الله فى الأرض لأنه إنما يعتمد على القوة الغاشمة ثم هيمنت الكنيسة على كل ميادين البحث العلمى و فرضت عليه ما تراه حقا مستندة فى ذلك إلى سلطة الكتاب المقدس المعصوم من كل خطأ-فى زعمها-و سرعان ما اتصل الدين بالظواهر الطبيعية و نحوها مما يدخل فى نطاق العلم و الفلسفة.

و أصبحت الحقيقة العلمية هى التى تقوم على ظاهر نصوص الإنجيل و تأويلها الحرفى كفيل بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون.

و طوال هذه الفطرة الحالكة التى سيطرة فيها الكنيسة على مقدرات الحياة الأوروبية ضمت تحت أرديتها بعض الأفكار و الآراء المختلفة المتنوعة فى علوم شتى، آمنت بها و اعتقدت صدقها و حرصت-كل الحرص-على السير بمقتضاها و التمسك بها، ثم راحت تؤيدها بأدلة من

الكتاب المقدس و تقدمها للناس فى هالـــة مـــن الإجـــلال و الإكبار و الاحترام و التقديس و على أنها الحق الذى لا مرية فيه فلا من شك يتطرق إليها أو يقترب من ساحتها.

و أخذت تفرض على الناس الإيمان بهذه الآراء الكنســـية و تجبرهم على الأخذ بها و الحفاظ عليها و السير تحــت ظلالها كما أخذت الكنيسة-فى الوقت نفسه-تحرز رعاياها من الأعراض عنها أو التمرد عليها أو خلـــع قيودهـــا أو الخروج على تعاليمها[1].

و اعتبرت الكنيسة كل من ينفس عن كاهله غبار الجـــهل المفروض عليه، أو يحاول أن يخرج من دائرة ظلامـــه- هرطقة، و الهرطقة-حسب تفسير الكنيســـة آنـــذاك هـــى

---

[1] ص ٥٢-٥٣ د/محمد رشاد عبد العزيز: العلمانية و أثرها فى أوروبـــا، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨م.

مخالفة رأيها[1] و من يفعل ذلك يصب عليه العذاب صبـــاً يستوى فى ذلك التشـــريد أو الســجن أو الحكـم عليـــه بالإعدام.

و كان من رأى الكنيسة التى ألزمت به الناس هو اعتمـــاد مذهب "أرسطو" فى الفلسفة و المنطق و أقـــرت تفســير الدين على وقف هذه الفلسفة و اعتمدت منهج "أرســـطو" فى البحث و هو منهج القياس المنطقى و اقتنعت بأن هــذا المذهب يصلح للبحث فى كل شئ حتى فى الدين.

إن المذهب العقلى التقليدى الذى اعتمدته الكنيسة كان يتخذ القياس الأرسطى منــهجاً للتفكـير و اعتبرتــه الأســاس الصالح لنيل المعرفة على أساس أن للعقل ملكة لا تخضع للتجارب و هو فطرى يستطيع أن يصــل إلــى الحقيقــة المطلقة و لقد علا الفكر الأرسطى و سلطانه على يد "يمـا

[1] ص ٢٥٦ د/أحمد شلبى، المسيحية الطبعة الخامسة عام ١٩٧٧ م.

الاكيونى" الذى أعجب بـــالمنطق الأرســطى و الفلســفة الأرسطية و قد اعتمده الكنيسة منهجاً لـــها فـــى البحــث و التفكير و اعتنق العالم الكاثوليكى لحله فكرة "أرســطو" و منطقه كدين إلى جانب دينه[1] بل انـــهم أثبتــوا لكــلام "أرسطو" نوعاً من القداسة لا تقل كثيراً عن قداسة الإنجيل لدرجة انهم اتهموا بالكفر و الإلحاد كل من يخرج علـــى كلام "أرسطو" و نظرياته و حكموا عليه-كما قلنا ســابقاً- بالموت بأبشع الطرق[2].

و مع هذا كله فإن الأحرار من المفكرين الأوروبيين لـــم يخضعوا لتعاليم الكنيسة و لم ترهبـــهم العقوبــات التـــى فرضتها الكنيسة و لم يخفهم وعيد الكنيسة و لم تقل قوة ما يرونه من أنواع العذاب الـــذى تصيبـــه الكنيســـة علـــى

---

[1] إطلالة على المنطق القديم (التصديقات)، د/ محمد رشاد عبد العزيـــز الطبعة الأولى عام ١٩٩٧ م.

[2] ص ١٩٤ أبو الحسن الندوى-ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين.

المتمردين عليها الخارجين على أوامرها التى تحـــاول أن تعيد بها-الحياة-إلى عصور التخلف و الجمود.

و من هنا فقد اتجه المفكرون الأحرار بعقولهم إلى مظاهر الطبيعة يبحثون عن أسرارها و يكتشفون قوانينها و يقفون على حقائقها بعيداً عن سيطرة الدين و رجاله أو بعيداً عن قبضة الكنيسة و كيانها و ما كان للعقـــل الأوروبـــى أن يشغل ذلك لولا إطلالة ضياء و هالة نور حملها الـــتراث العلمى و الفكر الإسلامى الذى وقفت أوروبا على ترجمـــة دقيقة له حيث شاهدوا نـــور الله فـــى رســـالة الإســـلام و تتلمذوا على أساتذة من المسلمين فى جامعات الأندلـــس و صقلية و غيرهما و علموا من خلال دراساتهم أنــــه لا سلطان لأحد من رجال الدين على العقل أو القلب و أنه لا وساطة بين الله و بين عباده، و قد اعـــترف المنصفـــون منهم بأن المسلمين كانوا أساتذتهم فـــى اكتشـــاف وحـــدة القوانين الكونية و أهمية التجريب و ذلك للتأكد من صحـــة

الحقائق العلمية، و فى إيجاد علـــم التـــاريخ و ضوابطـــه و أسانيده و علوم اللغة و الطب و الفلك و الجبر و علـــم الضوء.

فقد أخذ المسلمون من العالم اليونانى المعرفة الرياضيـــة و الطبيعية التى احتقرها الرومانيون و نبذها المســـيحيون جنباً–و راحوا يعملون بصبر و جلد و جـــهد فـــى ذلـــك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوجه عظمتهم تـــابعين طرق التدرج البطيء و التكيف العملى، و بنوا فى القـــرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعـــة فحسب، بل كان علماً طبعه على الفنـــون و الصناعـــات الضرورية للحياة العملية.

يقول أحمد أمين: اتصل الأوروبيين بالمسلمين فى الأندلس اتصالاً وثيقاً و اتخذ علماؤهم فلاسفة المســـلمين أســـاتذة يتعلمون منهم و يدرسون عليهم، و نشطت حركة واســـعة

النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية و هى لغة الأدباء و العلماء فى القرون الوسطى حتى أن كثـــيراً مما بقى من مؤلفات "ابن رشد" حفظت إلـــى الآن باللغـــة اللاتينية و لا نجد لها أصلاً بالعربية، و فى القرن الثـــالث عشر كانت كل كتب "ابن رشد" تقريباً قـــد ترجمـــة إلـــى اللاتينية ماعدا كتباً قليلة منها كتاب تهافت التهافت الـــذى رد فيه على تهافت الفلاسفة "للغزالى" فقد ترجم فى القـرون الرابع عشر و كان أهم مركز لتعاليم "ابـــن رشـــد" فـــى جامعة بولونيا و جامعة بادوا و منهما انتشرت الثقافة فـــى إيطاليا الشمالية الشـــرقية إلـــى القـــرن الســـابع عشـــر و استمرت كتب "ابن سينا" فى الطب سائدة إلى مـــا بعـــد هذا العصر.

و رجال النهضة الحديثة الذين قـــاموا بحركـــة الثـــورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب أو يتتلمذون علـــى من درسوا عليها "فروجو بيكون" الذى سبق أهل زمانـــــه

فى معارفه و طريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلـــس و درس فلسفة "أبن رشد" و القسم الخامس من كتابه فـــى البصريات مستمد و مساير لكتاب "ابن الهيثم" فـــى هـــذا الموضوع نفسه[1].

و بدأ الأوربيون يتفاعلون مع الفكر الإسلامى و يجنـــون ثماره اليانعة. هذا و قد وجه "ديكارت" الفيلسوف الشـــهير أول ضرباته للمفاهيم الأرسطيه و أول من وجه إليها نقـداً عنيفاً، فهو على حد تعبير أستاذنا الدكتور محمد غلاب[2].

---

[1] قصة الفلسفة الحديثة المقدمة- أحمد أمين مطبعـــة لجنـــة التـــأليف و النشر-القاهرة ١٩٣٦م.

[2] ص١٤٤ المعرفة عند مفكرى المسلمين-الـــدار المصريـــة للتـــأليف و النشر.

أول من صوب السـهم الأول فـى مهاجمـة المفـاهيم الأرسطية و لم يَحتفظ منها آلا بأشياء قليلة اعتبرها حقائق ضرورية و جعل العقل هو القياس الوحيد للحقيقة.

و انتشرت فلسفة "ديكارت" فى أوربا كلـها فـى حياتـه و كانت هذه الفلسفة بعينها بعد مماته هى الشغل الشـاغل للأوروبيين.

ثم جاء"فرنسيس بيكون" ووجه ضربـة قاصمـة للفكـر الأرسطى-فكر الكنيسة الرسـمى-فقـد كـان يـرى أن "المعرفة تبدأ بالتجربة الحسية التى تعمل علـى إثرائـها بالملاحظات الدقيقة و التجارب العلميـة" ثـم يـأتى دور استخراج النتائج منها و على مهل و لا يكفى عـدد قليـل من الملاحظات لإصدار الأحكام و قد دفع به هذا الموقـف إلى نقد المدرسين و القدماء لاكتفائهم بالتـأمل النظـرى حول الطبيعة دون أن يعنوا بملاحظة ظواهرها و من ثمة

فأن التفكير الحق-فى نظرة-يجب أن يقوم على أساس من العلم و يستمد من نتائجه القائمة على الملاحظة و التجربة، فيجب على العالم الطبيعى أذن احترام الواقع الحسى إلى جانب الذهن فى تخطيطه للطبيعة[1].

و هذه هى أسس النظرية الجديدة التى استند أليها "بيكون" فى دعوته إلى إصلاح المنطق الصورى الأرسطى و تعديله و الاستعاضة عنه بمنطق جديد يمهد السبيل أمام الإنسان كى يستطيع بواسطته الكشف عن ظواهر الطبيعة و السيطرة عليها و معنى ذلك أنه يريد أن يستبدل منهج البرهان القياس بمنهج الكشف الإستقرائى.

و سرعان ما جاء كتابه الجديد الذى أسماه "المنطق الجديد" حاملا لهذه النظرية و قد بين "بيكون" أخطاء الفكر فى العصور الوسطى و حذر من الوقوع فيها، و ميز بين

---

[1] العلمانية.د/ محمد رشاد دهمش ص٥٩-٦٠ مرجع سابق.

أربعة أنواع من الأخطاء التى تعوق تقدم المعرفة و تقف مجر عثرة فى سبيل الكَشف العلمى أسماها بالأصنام أو بالأوهام و هى أوهام القبيلة-أوهام الكهف-أوهام السوق-أوهام المسرح-كما بين أن الإنسان فى العصر الحديث ورث أفكار القدماء و تصورهم عن الطبيعة المستندة إلى الخيال أو اللاهوت، و العارية تماماً عن الملاحظة و التجربة و رأى أن العلم يجب فصله عن سيطرة رجال الكنيسة و عدم أقامه العلم الطبيعى على أساس من النصوص الدينية و بهذا فقد نجح "بيكون" فى تحرير الفلسفة و العلم من الدين و قضاياه[1].

ثم جاء "مل" وكرر نقد "ديكارت" و "بيكون" من أن القياس الأرسطى لا يفيد اكتشاف حقائق جديدة و إنما هو مجرد تحصيل حاصل إذ أن نتائجه متصمنة فى مقدماته.

---

[1] ص ٤٣ الفلسفة الحديثة : د/"ايوريان".

فلو أننى قلت بأن كل إنسان معرض للمـــوت و ســـقراط إنسان-كانت النتيجة أن سقراط معرض للمـــوت و هـــى ليست جديدة لأنها أحد أفراد العقلية الكلية فهى جزئية مـــن جزئياتها، إذ أننى لا يمكن أن أحكم بأن كل إنسان عرضه للموت إلا إذا تصفحت كل أفراد الإنسان و منها ســـقراط بهذا تكون فكرة (تعرض سقراط للموت) قد سبقت حكمـــى على تعرض (كل إنسان للموت) فلا جديد فـــى النتيجـــة و إنما هى إحدى جزئيات المقدمة الكبرى[1].

و من هنا فأن قياس "أرسطو" لا يكشف لنا عـــن حقـــائق جديدة و إنما يردد حقائق سبق العلم بها.

لذلك رفض "مل" المنطق القديم و حاول أن يضع منطقـــاً جديداً هو المنطق الإستقراطى العملى.

---

[1] انظر ص ١٥٣ من النفسانية المنطقية عند "جون اســـتيوارت مـــل" الدكتور عبد الفتاح الريدى سنة ١٩٦٩م القاهرة.

هذا و يلاحظ أننا نركز على العلوم المنطقيــة فــى هــذا البحث و ذلك لأنه آله العلم أو الأداة التى يفضلـــها بــدأ التفلسف و لذلك فأن "أرسطو" فيلسوف اليونان الشهير قــد اعتبر المنطق مقدمة الفلسفة الأولـــى أو بدايــة أو أيــة للميتافيزيقا.

و لا شك أن المنطـــق هــو لبــاب الفلســفة و جوهــر الميتافيزيقا، بل و يمكننا أن نصل إلى ما هو أبعد من ذلك فنقول انه "هيكل" كل فلسفة إذا ما جردت عـــن شــحمها و لحمها.إذ إن أى فلسفة من الفلسفات ليست فى ذاتــها إلا نسقاً رتيباً من القضايا المنطقية و فى هذا الصدر يقـــول "برتراند رسل" الفيلسوف الرياضى المنطقـــى: أن صلـــة المنطق بالميتافيزيقا، كصلة الرياضيـــات بالطبيعيـــات أو بالفيزيقا، فكمـــا أن الرياضيـــات تســتند إلـــى القوانيـــن و المعادلات و القضايا الرياضية فى حل مشاكل العلـــوم

الطبيعية فان المنطق يستعين هو الآخر بمناهجه و أدواتـــه و قوانينه الفكرية الخالصة فى حل مســــائل الميتافيزيقـــا و لقد أكد لنا "رسل" فى مقاله "صلة المنطق بالميتافيزيقـــا" الذى نشر فى فـــبراير ســـنة ١٩٤٩-مســـاهمة المنطـــق الحديث مساهمة فعالة بصدد الميتافيزيقا[١].

و من هذا و غيره كان اهتمامنا بعلم المنطق الذى يتخـــذه الفيلسوف و المفكر منطلقاً لآفاق جديدة من الفكر الـــهادف البناء.

---

[١] ص ٢٩ د/ قبارى محمد إسماعيل علم الاجتماع و الفلسفة طبعـة أولى سنة ١٩٧١م.

نقد البرجمانية للمنطق القديم

لقد شاركت المدرسة الفكرية البرجمانية فى نقد المنطق القديم حيث وجهت له عاصفة من النقد اللاذع على يد فلاسفة هذه المدرسة التى تقوم على أساس المصلحة و المنعة، و من هذه النقطة وجهه "شيلر" البرجمانى نقده للمنطق فأدعى أن المنطق القديم لا قيمة له و لا فائدة منه لأنه لا يؤدى إلى نتائج عملية و لا يقوم بتأدية أى خدمات للبشرية فهو على حد تعبير "شيلر" منطو على نفسه و مكتف بذاته و منفصل عن جميع الاهتمامات البشرية الأخرى[1].

---

[1] ص ٢٧ ج٢: الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام "رودلف ميتسى" ترجمة د. فؤاد زكريا.

كما قال "شيلر" بأنه المنطق القديم قد تجرد من كل تفكـــر فعلى و اقتصر على عرض قواعد شكلية محضة و تحول إلى تلاعب فارغ بالألفاظ و انحدار إلى مرتبة البـــهلوانات و المشعوذات العقيمة الخالية من كل معنى.

و نادى بوجوب تغيير المنطق القديم بمنطق جديد عملـــى يهتم بالإنسان و حاجاته، و من هنا فقد اقترح "شـــيلر" أن يختلط المنطق بعلم النفس و علوم الاجتمـــاع و الإنســـان و أن يحاول إشباع الحاجات العملية لنفس البشر.

و هكذا وجهت أوربا مهام نقدها لمنطق "أرسطو" و نـــادت بأن يحل مكانه منطق جديد هـــو المنطـــق القـــائم علـــى الاستقراء لا على القياس كما كان منطق "أرسطو" و مـــن ثمة فقد استيقظ العقل الأوروبى و أزاح عنه غبار الجـــهل و بدأ يبحث فيما حوله و يلتمس الإرشاد فى آداب اليونـــان و الرومان و فلسفتهم فأوجد المذهب الإنسانى الذى أنشـــأ

جواً عقلياً مكن للفكر من الانطلاق فـــى بدايـــة عصـــر النهضة و لذا فقد تعددت نواحى النشـــاط عنـــد الإنســـان الأوروبى و تنوعت ألوان تفكيره و أخذ يتعقب المعرفـــة و ينشدها لا من أجل الكنيسة كما كان يفعل فى المـــاضى و لكن من أجل المعرفة كى يظفر بها و يعـــض عليـــها بالنواجذ و لم تكن هذه النهضة الفكريـــة حادثـــة مباغتـــه شهدتها أوربا و جاءتها عن طريق العرض و الصدفـــة أو حدثت فجأة دون تمهيد، بل كانت هـــذه النهضـــة نتيجـــة حتمية و طبيعية لثلاث حركات كبرى ظهرت فى الســاحة الأوروبية و هذه الحركات هى:

مقدمات النهضة:

١. بعث الآداب القديمة
٢. الإصلاح الدينى
٣. نشأة العلوم الطبيعية

و ليست هذه الشعب الثلاث فى حقيقة الأمر إلا مظاهر مختلفة لنهضة واحدة شملت أوروبا بأسرها فبعثتها بعثاً جديداً.

الأمر إلا مظاهر مختلفة لنهضة واحدة شملت أوربا بأسرها فبعثتها بعثاً جديداً.

و سوف نلقى بعض الضوء على هذه الشعب الثلاث التى تفاعلت و اتحدت فشكلت نهضة عظيمة شملت ربوع أوربا قاطبة.

أولاً: النهضة الأدبية:

لقد شكلت النهضة الأدبية ثورة عنيفة قصدت إلى تحرير الحياة مما أصابها أيان العصور المظلمة التى كبلت العقل بالجمود و العقم فعملت هذه النهضة على النهوض بالعقل من عثارة و عملت

على تحريره من الجمود و الجهل و العقم الذى ران عليه سنوات طويلة بل و نفخت فيه روح لبحرية و الحياة و النشاط و قدمت له الغذاء المتمثل في آداب اليونان و الرومان -كما قلنا من قبل- و قد أقبل الناس إقبالا حسناً على هذه الآداب و انكبوا عليها انكباباً كبيراً و استوعبوها دراسة و بحثاً.

و لعل أول من حمل لواء هذه النهضة المباركة عما "تبرارك" و "دانتى" و غيرهما من رجال الأدب الذين جاؤا آحاداً فى عهود متعاقبة فى أواخر القرون الوسطى فكانوا طلائع حياة فكرية جديدة بشروا قومهم بها و يقدومها.

و مما عجل بظهور النهضة و استحث خطاها فرار طائفة من علماء القسطنطينية حين فتحها الأتراك سنة ١٤٥٣ ميلادية فلجئوا إلى إيطاليا و غيرها من

دول الشمال فقويت بهم الحركة الأدبيـــة و اتســع نطاقها و كان مركزها مدينة فلورنســا بإيطاليــا و خاصة فى عهد رئيس جمهوريتـــها "كورنيمـــودى مديتشى" حيث كان عالماً و فيلسوفاً و فناناً و بـــذل جهداً محموداً فى حماية الآداب القديمة و بعثها و قد أسر لهذه الغاية النبيلة "أكاديمية" فى حدائق قصره.

ثانياً: حركة الإصلاح الدينى:

زامل النهضة الأدبية فى خطاها حركة إصلاح فـــى الدين نبتت بذورها فى ألمانيا ثم ذاعت منها فى ســائر الأرجاء و انتهت بالناس إلى الثورة علـــى الكنيســة و سلطتها و رجالها و آرائها و نادت بوجوب حريـــة الرأى و حرية الفرد و استقلاله و اتصاله بالله جـــل جلاله اتصالاً مباشراً دون وسيط أو شفيع، فلا يحتاج فى توبته الى وساطة راهب أو قبس فلم تعد بالنـــاس حاجة إلى رجال الدين يتوسطون بينهم و بين ربهم ما

دام الإنجيل قد ترجم إلى لغتهم التى يفهمونها و مـــا دامت المطبعَة التى كان قد تم كشفها حديثاً تعمل على نشر كتاب الله و ذيوعه بين العامة و الخاصة حتـــى استطاع معه الزارع أن يقرأ بنفســـه الإنجيـل و أن يستوعبه و يحتكى إليه، و كانت الكنيسة قبـــل ذلـك توهم الناس بأنها الواسطة بينهم و بين ربـــهم و مـــن أراد الجنة فعليه أن يدفع مقدار من المال كى يـــأخذ جراماً من الكنيسة يتملك بمقتضاه من الجنة قدراً منها يتناسب مع المبالغ التى قام بدفعها و قد اشتهر هــــذا الأجراء "بصكوك الغفران" التى كانت تمثـــل أكـبر مهزلة فى تاريخ البشرية قاطبة فقد زعم القساوســـة أنهم ظل الله فى الأرض و أن مقدرات الناس بيدهـــم و أنهم قادرون على توريث الجنة لمن شاءوا أو لمــن يدفع ثمناً أكثر حتى يمكن للقساوسة أن تغفـــروا لـــه خطاياه و أن تعطوه نصيبه فـــى الجنـــة و نســـوا أو تناسوا بأنهم بشر و أنهم سوف يحملـــون أوزارهـــم

و خطاياهم و جرأتهم العجيبة على رب العالمين سبحانه و تعالى الذى بيده الأمر كله فهو وحده جل جلالة يغض و يفقر، يعطى و يمنع يثيب و يعذب، يرفع قوماً و يخفض آخرين (لا يسأل عما يفعل و هم يسألون) و صدق الله العظيم القائل (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مسك لها و ما يمسك فلا مرسل له من بعده و هو العزيز الحكيم)[1]. و القائل جل جلاله (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شى قدير)[2].

و من هنا فأن القساوسة لا يملكون لأنفسهم نفعاً أو ضراً أو موتاً أو حياة و سوف يضاعف الله لهم العذاب الأكبر لأنهم دلسوا على الناس و خدعوهم

---

[1] سورة فاطر : آية ٢.

[2] سورة آل عمران : آية ٢٦.

و باعوا أخرتهم بحفنة من مال و شوهوا تعاليم الدين و نفروا الناس منه حتى كانت الثورة الجامحة من المفكرين الأحرار الأوروبيين الذين وقفوا وقفة شامخة أمام طغيان الكنيسة و بينوا للناس خداعها و غشها و كذبها ووقوفها حجر عثرة أمام الحقائق العلمية بل و أقاموا "محاكم التفتيش" لإرهاب المفكرين و العلماء الذين تحملوا فى سبيل مبادئهم النبيلة تضحيات تنوء بها الجبال فكانوا مثلاً يحتذى و قدرة عبر التاريخ للأجيال القادمة و قد انتصر الحق و زهق باطل الكنيسة و صدق الله العظيم إذ يقول (فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض)[1].

---

[1] سورة الرعد من الآية ١٧.

ثالثاً: نشأة العلوم الطبيعية:

و لقد تناصر مع هذين العالمين السابقين عامل ثـــالث كان عظيم الخطر بعيد الأثر فى توجيه الفكر الحديـث و أعن به نشأة العلوم الطبيعيـــة و دراســـة ظواهـــر الطبيعة عن طريق الملاحظة و التجربـــــة العمليـــة، و كان العلوم حينئذ قد أفقه و اتسعت دائرته و امتـــــد نطاقه بكشف أمريكا و الطريق البحرى إلـــى الـــهند و بما أنتهى إليه "كوبر لكومى" فى دراسة الفلكية مـــن اعتبار الأرض كوكبـــاً بيـــن كواكـــب المجموعـــة الشمسية[١]. و بما أنتـــهى إليـــة "جـــاليلو" و "كيلـــر" و غيرهما من النتائج العلمية فقد أدى ذلك كله إلــــى توجيه العقل اتجاهاً جديداً إذ هبط به من عالم الغيـــب الذى يعيش فيه و يحلق فى سمائه و يخبط فى بيدائـــه

---

[١] ص ٢٦ و ما بعدها قصة الفلسفة الحديثة ج١ سنة ١٩٦٧ –أحمـــــد أمين: ذكى محفوظ.

مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر – القاهرة.

إلى هذه الطبيعة المحسوسة الواقعية التـــى نلمســها
و نراها ماثلةً أمامنا و أمام آبارنا.

و لقد أينع العلم و أزدهر، و أنتج طائفة قيمـــة مـــن
النظريات الجديدة و الحقائق العلمية و المخترعـــات
المفيدة التى غيرت حياة الإنسان و ذلك مثل الطباعة،
و البوصلة، و المجهر و ما إلى ذلك–فكـــانت أكـــبر
عون للإنسان على أزاحه نير الفلسفة المدرسية عـــن
عاتقة المكدود و اتخذ العصر الجديد أساســاً جديــداً
للبحث هو التجربة و الملاحظة، و قد كان الفيلســوفان
العظيمان: "ديكارت" و "بيكون" أول من صاح بالنــلس
هذه الصيحة التى جذبت أنظـــارهم إلـــى ملاحظـــة
الطبيعية و نبهت عقولهم إلـــى اتخـــاذ " التجربـــة "
و سيله للبحث و التحقيق، فلا يبغى للإنسان أن يقبـــل
شيئاً أو يصدق بشئ مما يفرض علية دون أن يختبره
بمخبار العقل و يثبته التجربة على أن يكرر الإنســان

هذه التجربة حتى يصل منها إلى العلم الذى لا يعتريه شك أو يحوم حول ساحته ريب.

و لقد كان طبيعياً -و الأمر كذلك- أن يحدث صراع عنيف بين الدين الذى تمثله الكنيسة و الذى يأمر الإنسان بالتسليم المطلق و بين هذه النزعة الفلسفية الجديدة التى لا تقنع بغير التجربة، و لكن هذا الصراع لم يدم طويلاً و لم يمكث كثيراً فقد حسمت الفلسفة هذا الصراع إذ تركت للاهوت علم الغيب و شئون الآخرة غير المحسوس لأن ذلك خارج عن نطاق بحثها و عن دائرة اهتماماتها و عن أفق تطلعاتها و اتجهت ببحوثها فى هذه الطبيعة تصول فى رحابها و تجول، فإذا كان عمل الدين أن يتحدث عن الغيب كما يبدوا فى كتابه المقدس، فإذا عمل الفاسقة أن تدرس كيف يتحلى الله فى الطبيعة

المحسوسة بالأفلاطونية و هكذا بدأت العلوم الطبيعية صوفية النزعة متأثرة.

الحديثة فهى للعالم كله وحده ألهيه أو هو كائن حى عظيم، الله مبدؤه و منتهاه.

و بهذا الطابع تميزت الفلسفة فى عصر النهضة كما يبدو فى أقوال فلاسفة ذلك العصر "برونو" و "بوهمة" الألمانى و "مونتانى" الفرنسى هذا و نحب أن نلفت أنظارك-أيها القارئ الكريم-إلى أن هذا الصراع الذى وقع بين العلم و الدين قد أتجه وجهة خطيرة و تطور تطوراً رهيباً حيث أخذت أوربا تبتعد-عن الدين- رويداً رويداً بل و تخلع عباءته من فوق هاماتها فقد قارنت بين آراء الكنيسة و مكتشفات العلم فوجدت أن آراء الكنيسة كلها جاءت خلوا عن الدليل المقنع و الحجة الدامغة و البرهان القاطع، كما وجدت

أن نظريات العلم أو حقائقه تؤيدها التجربة و الواقع و أن فتوحات العلم لا تدع مجالا للشك فى عظمة هذه الأداة المستجدة.

و من ثمة فقد آمنت أوربا بما أثبته العلم و أيدته التجربة و شهد به الواقع و سجله التاريخ و كفرت بما تقول به الكنيسة و انتهزوا هذه الفرصة السانحة فوقفوا فى وجه طغيانها و دكتاتوريتها الباغية و قد أمسكوا بأيديهم السلاح الذى يحطمون به أوهامها و يزلزلون به كيانها و ينزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها و الخاضعين لها و كان ذلك السلاح الجبار هو العلم القائم على الملاحظة و التجربة و الواقع و من هنا فقد بدأ العداء فى أوربا بين العلم

و الدين [1] و من هنا أيضاً بدأت أوربا خطواتها الأولى نحو العلمانية.

---

[1] ص ١٦ د/ محمد رشاد دهمش-الفكر الماركسى فى ميزان الإســــلام

العوامل التى ساعدت على النهضة الأوربية

بعد عرضنا السابق للمؤثرات التى أثرت تأثيراً فعالاً فى نشأة النهضة الأوربية يمكننا أيجاز العوامل التى بعثتها من مرقدها فيما يلى:

أولاً: إن نهضة أوربا ترجع فى جزء كبير منها إلى تلك الحركة العلمية الفلسفية التى أثارها المسلمون فى الغرب أثناء القرنين الثالث عشر و الرابع عشر بواسطة ما ترجم من كتبهم إلى اللاتينية، فأن هذه الكتب وجهت أنظار المسيحيين نحو الدراسات القديمة و حببتهم فيها.

طبعة ثانية سنة ١٩٩٦م.

و بالرغم معارضتـــهم لفلاســفة الإســلام وعلمائـــه و عقيدته فقد تتلمذوا لهم فـــى موضوعـــات كثـــيرة و تأثروا بهم فى نواح مختلفة، "فروجر بيكون" الـــذى يشترك مع "فرنسيس بيكون " المشهور فى جنســـيته و اسمه و دعوته إلى التجربة و الملاحظة و اعتـــداده بهما اعتداداً فاق أهل زمانه و الـــذى صـــرح بـــأن الحضارة اليونانية هى شباب العلم، و اهتـــدى إلـــى مخترعات أعانت على تقدم العلم و الصناعة، نـــهل من الموارد العربية و أفراد من ثقافـــة مـــن ثقافـــة الأندلس العلمية و "جيوم الآكامى" الذى أطرح ببعـض الأفكار المدرسية و دعا إلى شى من الإصلاح الدينى قبل "لوثر" بنحو قرنتين قرأ كتب العرب و أخذ عنـــهم و ليس غريباً إن تكون إيطاليا مســقط رأى النهضـــة الحديثة و فيها أنشئت جامعة بولوينا و بـــادو اللتـــان كانت تتدارس فيها تعاليم ابن رشد إلى أوائل القـــرن السابع عشر، و من ثمة فـــأن العـــرب قـــد دفعـــوا

اللاتينيين إلى الدراسة و رغبوهم فى البحث عن الثقافات القديمة [1].

ثانياً: هجرة كثرة من علماء مدينة القسطنطينية إلى إيطاليا و غيرها على أثر فتح الأتراك لها فحببوا اللاتينيين فى اليونانية و ساعدوهم على تعلمها و حملوا إليهم نصوصاً و مخطوطات لم تكن معروفة لهم من قبل، و أحدثوا فى فلورنسا بوجه خاص حركة علمية عظيمة و كانوا طلائع عصر جديد و حياة جديدة و لعل أهم آثار هذه الحركة أمران:

١-حرية فى الرأي.

٢-حب الطبيعة.

---

[1] ص ٩٢ دروس فى تاريخ الفلسفة: إبراهيم مدكور و يوسف كرم سنة ١٩٥٣م.

و ذلك لأن موازنة أفكار السابقين و مقابلـــة بعضـــها ببعض مكثَ الباحثين من أن يتخلصوا من سلطانهم و ينقدوهم و يردوا عليهم من وجدوا إلى سبيلاً، هذا إلى إن الثقافة اليونانية فى مظاهرهـــا المختلفـــة الفنيـــة و العلمية و الفلسفية غرست فى القلوب حب الطبيعـــة و التعلق بها و الحرص على اكتشـــافها و التعـــامل معها.

ثالثاً: ليس هناك أدنى شك فى أن هذا الاتجاه الجديد نحو الطبيعة و كشف قوانينها و الوقوف علـــى أســـرارها كان عاملا قوياً من عوامل النهضة الحديثة و قد نمـــاه و دعمه كشف "كرستوف كولمبوس" لأمريكـــا و مـــا توصل إليه العلماء و الصناع من مخترعات حديثـــة كالمجهر و البـــارود و البوصلـــة الســـحرية و فـــن الطباعة و غيرها كثير مما دفع -هذا كله- الناس إلـــى الاعتقاد القـــوى بـــأن الطبيعـــة مملـــوءة بالآيـــات

و المعجزات و من الواجب دراستها و البحث عن فدخائلها و معرفة نواميسها و التعرف على أسرارها.

رابعاً: لقد أشرنا سابقاً إلى سيطرة رجال البدين على الدراسة و الأبحاث العلمية و العقلية و وجوب خضوعها لما تراه الكنيسة فى هذا المجال، فلكى يتحرر العلم تماماً كان عليه أن يخرج تماماً من الأديرة و الكنائس حيث سلطة الكنيسة القاهرة، و هذا ما حدث فعلاً حيث أقصيت فى القرن الخامس عشر الميلادى أكاديمية فى فلورنسا و أخرى فى البندقية لتدرس فيهما العلوم بعيدة عن نفوذ القساوسة و سلطانهم ثم أسس "فرانسو" الأول "الكولينج دى فرانس" فى باريس لتساعد على نهضة العلوم الإنسانية و تنميتها و قد أدت هذه المؤسسات أمانتها

التيارات الفلسفية فى عصر النهضة

نشط الفكر الأوروبى نشاطاً ملحوظاً فى مجالات العلوم و الفنون و الآداب بينما لم تحظ الجوانب الفلسفية بما حظيت به هذه العلوم من إبداع و ابتكار، فقد ظل المشتغلون بالعلوم الفلسفية فى عصر النهضة يرددون- تقريباً-الأفكار السابقة و يتحمسون لها و يعملون على نشرها و الخضوع لها. و مع ذلك فقد تميز كما قلنا بروح النقد التى مهدت الانطلاقة الكبرى هذا و يمكن أجمال التيارات الفلسفية فى عصر النهضة فيما يلى:

أولاً: التيار الأفلاطونى:

لقد بدت الفلسفة الأفلاطونية لرجال عصر النهضة أقرب إلى الدين فعادوا إليها و حاولوا التوفيق بينها و بين المسيحية[1]. فأفلاطون يثبت خلود الروح و يصرح بخلق العالم خلافاً لأرسطو، و قد انتشرت فلسفة أفلاطون فى مختلف بلاد أوربا فى ذلك العصر انطلاقاً من الأكاديمية فى فلورنسا و التى تأسست عام ١٩٦٠م و بذلك أصبحت فلسفة أفلاطون منافسا قويا للفلسفة الأرسطية.

ثانياً: التيار الأرسطى:

لقد شاءت الأقدار أن تحرز فلسفة "أرسطو" مكانه رفيعة و منزلة كبيرة فى العصور الوسطى فى أوربا،

---

[1] أنظر ص٥ ج٣ تاريخ الفلسفة الغربية و انظر ص٢٥ و ما بعدها د. محمود زقزوق دراسات فى الفلسفة الحديثة طبعة أولى ١٩٨٥م.

و قد كانت كلية الآداب فـــى بـــاريس أهـــم معقـــل للدراسات الأرسطية التى كانت متأثرة إلى حد كبـــير بآراء الفيلسوف المسلم الكبير ابن رشد و شـــــروحه، و قد أثار الأرسطيون سخط الكنيسة و غضب رجـــال الدين و ذلك لما تحمله آراء "أرسطو" و تأويلات ابـــن رشد من مخالفة لآرائهم و بخاصة فى القـــول بـــأن العالم قديم و بأن الجسم يفنى بفناء النفس و غيرهمـــا من المسائل الأخرى فأحرقوا و أعدمـــوا الكثـــيرون منهم، و قد اضطروا فى عصر النهضة إلى التمركـــز "فى بادوا" بإيطاليا و قد وفر لهم مجلس الشيوخ فـــى البندقية جو الحرية الذى لم يجعل يد محاكم التفتيـــش تصل إليهم أو تنال منهم و يعد هؤلاء البادويون أكـــبر ممثلى الفلسفة الأرسطية فى عصر النهضة و لكنـــهم كانوا فريق يتم بالجدل و الخصومة أكثر منهم أنصار تجديد و ابتكار.

ثالثاً: التيار الرواقى:

الفلسفة الأخلاقية الرواقية قرينة منذ القدم من المسيحية و قد ظهرت في عصر النهضة رواقية جديدة تحاول أن تتلاءم مع أصول المسيحية و تربط نظرياتها الأخلاقية بالتعاليم المسيحية و قد نشرت الأبحاث الأخلاقية للرواقيين من أمثال "شيشرون" و "ماركوس" و "تسكا" و غيرهم و ترجمت إلى اللغات الأوربية الحديثة و كان لهذه الأبحاث آثار كبيرة على تربية النفوس و تهذيب السلوك الفردى و الاتجاه إلى دراسة الإنسان كما هو في ميوله و غرائزه الفطرية قبل البحث عن مثله العليا.

رابعاً: تيار الشكاك:

لقد سرت روح النقد في عصر النهضة و صاحبت المظاهر المختلفة للنهضة و يعد هذا النقد أول خطوة نحو الشك و قد أدى تناقض المذاهب

و تعارض النظريات و تضارب الآراء إلى الشـــك في صحتها و شهد القرن الســـادس عشـــر موجـــه عارمة من الشك تتحه إلى هدم الأصـــــول الثابتـــة و المبادى المقررة، و من أبرز شكاك هذا العصـــــر "موفيتنى" عام ١٥٣٣-١٥٩٢م هـــذا و نحـــب أن نلفت أنظاركم إلى أنه على الرغم مـــن كـــل هـــذه التيارات الفلسفية التى ليس فيها جديد أو تجديـــــد أو ابتكار يكر إلا أنها قد احتضنـــت بعـــض الأفكـــار و احتوت بعض المبادى التى تلقاها رجال القـــــرن السابع عشر و عرفـــوا كيـــف يتفـــاعلون معـــها و يستغلونها و يوضحونها.

الفلسفة الحديثة

لا يستطيع إنسان مهما كانت قوة ملاحظته و بعد نظرته أن يزعم بأن عصراً من العصور التى يحمل سمات خاصة للفكر الفلسفى و التى تتميز بها عن غيرها بين سائر العصور أن تحدث دفعة واحدة و إنما الأقرب إلى الواقع و الأدنى إلى الحقيقة أن هذه الخصائص الفكرية أو الفلسفية التى يتميز بها ذاك العصر عن غيرة من العصور الأخرى أن تنمو شيئاً فشيئاً على فترات متقاربة و متعاقبة و من ثمة فلا يمكن أن تكون الحدود التى حدد بها المؤرخون لعصور التفلسف حدوداً قاطعة فاصلة تميز كل عصر من عصور التفكير الإنسانى تميزاً قاطعاً و تجعل منه شيئاً مغايراً تمام المغايرة لكل العصور التى سبقته أو العصور التى تلحقه أو تأتى من بعدة فالواقع أن تيار الفلسفة متواصل و أن الأفكار الفلسفية يأخذ بعضها برقاب بعض يأثر القديم فى الجديد و يؤثر الجديد فيما

يعقبه و من هنا فأننا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن الفلسفة القديمة و الفلسفة المدرسية لا زالتا يؤثر كل منهما بشكل أو بآخر فى الفكر الحديث و المعاصر، فرغم أن الفلاسفة المحدثين قد عارضوا "أرسطو" معارضة شديدة و أوجعوا منطقه نقداً و سددوا إلية سهاماً قاتلة إلا أنهم مع هذا كله- قد احتفظوا بقدر من آرائهم و رغم حملتهم القاسية على المدرسيين إلا أنهم لم يمكنهم التخلص تماماً من آثارهم، كما أن الفلاسفة المحدثين أيضاً مدينون إلى حد بعيد لرجال النهضة و ما جاءوا به من أفكار جديدة ذلكم أننا نرى-مثلاً-أن "ديكارت" أو الفلسفة الحديثة لم يخترعها اختراعاً و لم ينشئها إنشاءاً فقد سبق إلى كثير من أفكاره فلاسفة آخرون و كذلك المنهج التجريبي الذى يعتبر "فرنسيس بيكون" مؤسس له يرجع فى الواقع إلى "روجر بيكون" فى القرن الثالث عشر الميلادى و هذا بدورة قد استقى أصول منهجه من فلاسفة الإسلام و على ذلك فأن الفلسفة الحديثة تزخر بأفكار عديدة مختلفة من شتى

الفلسفات التى سبقتها لا فرق فى ذلك بين فلسفة شرقية أو فلسفة غربية و لا بين فلسفة يونانية أو فلسفة عربيـــــة أو يهودية و مسيحية[١].

و من اجل ذلك اختلفت آراء المؤرخين فى وضع الحــدود الفاصلة بين عصر و آخر من عصور التفكير الإنسانى.

و قد درج مؤرخو الفلسفة على تقسيم تاريخ الفلسفة إلـــى ثلاثة مراحل كبيرة هى العصر القديم، و العصر الوســيط و العصر الحديث و يقصد بالعصر الحديث هنا فى العــادة تلك الفترة التاريخية فى تاريخ الغرب التى تبــدأ بعصــر النهضة الأوربية و تمتد حتى العصر الحاضر[٢].

---

[١] ص٨٦ دروس فى تاريخ الفلسفة : إبراهيم مدكور.

[٢] ص١٠-١١.د/محمود زقزوق . دراسات فى الفلسفة الحديثة طبعـــة أولى ١٩٨٥ م.

إن الفلسفة الحديثة التى تبدأ فى مستهل القرن التاسع عشر الميلادى أو مطلَع القرن العشرين فى رأى آخر. و من أهم ما يتصف به هذا العصر ما يلى:

مميزات الفلسفة الحديثة

تتسم الفلسفة الحديثة بصفات خاصة و تتميز بمميزات كثيرة و لعل أهمها ما يلى:

أولاً: إن هذه الفلسفة تعرف بأنها استمرار للفلسفات السابقة عليها، حيث أن سلسلة التفكير الفلسفى متصلة بعضها ببعض عبر مراحل التاريخ المختلفة إلا أنها أقرب إلى فلسفات عصر النهضة، و بهذا تكون الفلسفة متمشية مع تطور الحياة و الثقافات، و كما يقال: إن الثقافات تلقح بعضها بعضاً فكذلك الفلسفات يلقح بعضها بعضاً و يتأثر اللاحق بالسابق منها[1].

فتاريخ الفكر البشرى تعاقب مطرد لفلسفات إنسانية تختلف باختلاف الأجناس و الألوان و تاريخ هذا الفكر تنوع دائم و سعى متواصل لتحقيق فلسفة عامة

---

[1] اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ص١٥ د/ عزمى إسلام.

و حضارة عالمية يعيش الناس تحت ظلها الوارق فـي سعادة و طمأنينة، و الفلسفات البشرية المتعددة .

مراحل ذلك التنوع و محطات ذلك السـعى و هـذا التواصل تمهد الطرق و تعد العدة لتلك الحضـارات المنشودة التى طالما تمناها الإنسان فى كـل زمـان و مكان.

و لا شك أن هذه الفلسفة الجامعة أو هذه الحضـارة المنشودة هى النبع العميق الذى تصـب فيـه جميـع الروافد الفكرية و الفلسفية أو إن شـئت فقـل أنـها عصارة الفلسفات البشرية فى تعانقـها و تواصلـها و امتزاجاتها نتيجة تفاعلها المتجدد.

و من البديهى أن تشارك كل فلسفة من الفلسفات التـى شهدها هذا العالم منذ بدأت الفلسفة على يد "طـاليس" اليونانى فى القرون السحيقة الماضية و حتـى هـذا اليوم الذى نحيا فى رحابه فى وضب لبنات فى هـذا

الصرح العالمى و من ثمة فأن ظاهرة التأثر و التأثر ظاهرة واقعة سواء آمن بها الناس أو لم يؤمنوا[1].

ثانياً: أصبحت الفلسفات المعاصرة عامة منتشرة و ذائعة فى كل أرجاء العالم فالتبادل الثقافى بين الأمم و الجماعات على قدم و ساق و لا سيما بعد ما شهدته البشرية من هذا التقدم الهائل فى وسائل الأعلام حتى أضحت الدنيا كلها مثل قرية واحدة فما تكاد تظهر فلسفة هنا و هناك أو يظهر رأى من الآراء أو اختراع من الاختراعات حتى ينتقل فى سرعة البرق إلى أنحاء المعمورة قاطبة و تسارع وسائل الأعلام بتقدمها الهائل بنشرة و تحليله و التعليق علية و تقييم آثاره و حث الناس على الآخذ به أو تنفرهم من الاقتراب منه و أمرهم بالبعد عنه و تحذيرهم من الأضرار الناجمة منه.

---

[1] ص٥:د/ محمد رشاد عبد العزيز مدخل الفلسفة الإسلامية طبعة أولى ١٩٨٧م.

فالفلسفة الوضعية المنطقية لم تكن متمثلة فى النمسا أو إنجلترا فحسب بل راجت كذلك فى ألمانيا و أمريكا و غيرهما، كذلك فان الفلسفة العملية أو الفلسفة البرجمانية لم تكن مقصورة على أمريكا فقط بل تردد صداها و الدعوة إليها فى أكثر بلاد أوربا الشرقية و الغربية و كذلك الفلسفات المادية الجدلية لم تختص بها الدول الشيوعية بل امتدت إلى كثير من بلدان العالم.

ثالثاً: أن معظم الفلسفات المعاصرة التى تسود العالم فى هذه الفترة التاريخية من حياته إنما هى فلسفات عملية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

و لذا فأننا ندرك سر انتشار الفلسفة البرجمانية العملية التى ظهرت فى ربوع أمريكا ثم انتشرت مع هبات الهواء هنا و هناك و ذلك لأن الإنسان فى هذا العصر يرفض أن يتعامل مع فلسفات لا تحقق له نغماً أو تدفع عنه ضراً حتى و لو خلت هذه الفلسفات من السمات الروحية أو الأخلاقية.

رابعاً: تتصف هذه الفلسفات بأنها فلسفات تحليليـــة فـــهى تهتم بتحليل الأفكار و المعانى و توضيحها توضيحاً كاملاً و ذلك لأن الهدف العام هـــو توضيـــح هـــذه الفلسفات و شرح عباراتـــها و توضيـــح ســـماتها و أصالتها حتى يمكن استبعاد الرائف العالق بها[1].

خامساً: أن الفلسفة المعاصرة بسماتها-ترفـــض الفلســـفة المثالية و هى الفلسفة التى رفـــع رايتـــها "هيجـــل" و أعلى نسبها شأن المثالية التى تحـــاول أن توحـــد بين الفكر و الواقع، و تهتم فى الوقت نفسه بـــالواقع و تهتم اهتماماً بالغاً بالإنســـان و محاولـــة تقييمـــه ووضعه فى المكانة اللائقة به كسيد لـــهذا الكـــون و كأنها تسترجع آراء فيلســـوف اليونـــان العظيـــم سقراط الذى دعا إلى الاهتمام بالإنسان انطلاقاً مـــن الشعار الذى رفعه و عمل على تطبيقـــه (أعـــرف نفسك بنفسك) و إذا فقد قيل إن ســـقراط أول مـــن أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض و هكذا فـــأن

[1] ص ١٧ اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة. د/ عزمى إســـلام و ص٣-٤ د/ مبارك حسن حسين محاضرات فى الفلسفة الحديثة.

دعوه ذلك الفيلسوف اليونانى القديم تتجدد و تسيطر على الفلسفات المعاصرة و هذا ما نراه أيضاً واضحاً فى الفلسفة الوجودية التى أرسى قواعدها "سارتر" و التى جعلت نصب عينها الاهتمام بالإنسان اهتماماً بالغاً.

سادساً: تعمل الفلسفة المعاصرة جاهدة على أن ترتبط ارتباطاً و وثيقا بالعلم و ذلك يوضع المناهج المختلفة التى يسير على منوالها العلم و تجعل نفسها-فى الوقت نفسه-كالعلم تماماً فى كون نتائجها احتمالية و ليست يقينية حتى ينطبق عليها ما ينطبق على العلم من أنه لا يعرف الكلمة الأخيرة و ذلك كى تساير الحياة و ما يحدث فى الكون من اكتشافات متجددة و أحداث متتالية حتى تكون هذه الفلسفة جديرة بخدمة الحياة و الإنسان بل الكون كله على أننا نرجو أن نجمع الفلسفة سواء أكانت قديمة أو حديثة، شرقية أو غربية-بين الحسنيين-بين التقدم المادى و بين النزعة الروحية حتى تتناسب مع الإنسان الذى يجمع بين المادة و الروح، و ذلك لأن الله جل جلاله خلق الإنسان من هذه الثنائية

التى تحدث القرآن الكريم عنها فى قوله جل شـــأنه (و إذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشراً من طيـــن فإذا سويته و نفخت فيه من روحـــى فقومـوا لــه ساجدين) فالإنسان مخلوق-كما أخبرنا كتـــاب الله- من مادة و روح و من ثمة فينبغى أن يحافظ هــذا الإنسان على التوازن بينهما فلا يطغى جانب علـــى آخر و إذا لم يحقق هذا التوازن و أهتم بجانب علـى حساب جانب آخر حدث انحراف فى حياة الإنســان فاضطربت حياته و تعثرت-فى الحياة-خطواته فأما أن يهبط إلى درك الحيوان الأعجم و أما أن يبقــرة فى رحاب الملأ الأعلــى و فــى الحــالين يحــدث الانفصام بينه و بين مجتمعه الذى يعيش فى دائرتــه و من ثمة فأن الفلسفة الذى ينســجم تفكيرهــا مــع متطلبات المادة و أشواق الروح و تتناغم مع حيـــاة الإنسان السوى-هى الفلسفة الواعية المفيدة للفـــرد و الجماعة. أما الفلسفة التى تركـــز علــى جــانب و تترك الجانب الأخر فأنها تكون عاملاً فعالاً فـــى هذا المجتمع و تفويض سعادة الفـــرد و الجماعـــة و لذا وجدنا فلسفات تهتم بالمادة وحدها و فلســـفات تجنح إلى جانب الروح و كلاهما انحـــراف علـــى

التفكير المستقيم و المنهج القويم و ذلـــك لأن كـــلا منهما لا تتناغم مع طبيعة الإنسان و لا يتفـــق مـــع تكوينه و طبيعة حياته.

و لذا فإننا نهيب بالفلاسفة أن يجمعوا فى رحاب تفكـــيرهم بين ما يتناسب مع المادة و مع الروح فى وقت واحد حتى تسعد البشرية بمنهج حياتها و تسير على ما رســـمه لـــها خالقها جل جلاله فتجمع بين خير الدنيا و سعادة الخلـــود فى الآخرة فهل تحمل الفلسفة الحديثة مـــا يتواكـــب مـــع طبيعة الإنسان فتهتم بالجانب المادى فتقدم له ما يحقق كما له، و تهتم بالجانب الروحى و أشواق النفس و ســـبحات القلب و راحة الضمير و اطمئنان الخاطر و ذلـــك كـــى يستطيع الإنسان أن يبدع فى كل المجالات و ان يتفـــاعل مع الحضارة التى تحيا فى ظلالها و أن توجهـــها لخـــير الإنسانية و ليس لسلقتك بها و أن نعمل على سعادة بنـــى البشر و لا نعمل على شقائهم و أن نصلـــح الحيـــاة لا أن نشارك فى إفسادها و أن يشعر الناس جميعاً أنهم عباد الله جل جلاله لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح و التقوى.

نعود مرة أخرى فنقول: هل تحمل الفلسفة الحديثة ما يتلاءم مع الطبيعة البشرية أو أنها ابعد الأشياء عن هذا؟

يقول يوسف كرم–و كان أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة فى مقدمة كتابه عن الأوروبيين–"فكان القرن السادس عشر من أشد القرون اضطرابا و فوضى، انحلت فيه الروابط الدينية و العائلية و الاجتماعية و عنفت الأهواء القومية، فنشبت الحروب من أجل الدين و السياسة جميعاً و استبيح فيها كل محرم بحجة سلامة الأمير و الدولة–..إلى أن يقول: تلك خصائص عصر النهضة و هى خصائص العصر الحديث إلى أيامنا. نستطيع أن تردها إلى اثنين.

١–الفردية العنيفة فى الأدب و الدين و السياسة.

٢–و العناية البالغة بالعلم الآلى و تطبيقاته العلمية الرامية إلى توسيع سلطان الإنسان على الطبيعة و الزيادة تفى رخائه[١].

و سيكون لكل هذا صدى قوى فى الفلسفة، ستستقل الفلسفة عن الدين فتكون هناك فلسفة الحادية و تكون

---

[١] ص ٨–٩.

فلسفة تشبث بالعلم الآلى و تحصر حالها على قدر مجاله، أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة فى بعض المذاهب على تفاوت بينها، و تظل الأجيال إلى الآن حائرة مترددة، تعتنق المذاهب و تخلعها الواحد بعد الآخر و تستبدل نظاماً من الحياة بنظام ثم يقول: و يستمر هذا الصراع فى النصف الأول من القرن العشرين و يمكن ألا يتنهى، و لكن الروحية العصرية قد جاءت ناقصة، فأن الفلسفة الحديثة فى جعلتها لا تؤمن بالعقل و معاينة و مبادئه، و لا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة و اله غارق للطبيعة، فالروحانية مفتقرة فى الواقع إلى فلسفة وجودية موضوعية، كفلسفة "أرسطو".

و ينتهى يوسف كرم فى كتابه "تاريخ الفلسفة الحديثة" بالحكم الصريح النافذ على أن الفلسفة الحديثة و المعاصرة قد أفلست من كل ما هو نافع و مفيد و أصيل ثم يقرر بأن عصرنا الحاضر تواق إلى فلسفة تكفل الأخلاق و الدين[1].

---

[1] ص٣٤ و ما بعدها. د/بدران الفلسفة الحديثة فى الميزان–طبعة ثانية ١٤٦٩م.

و على هذا فأن الفلسفة الحديثة لا تحمل السمات التى تتفق مع طبيعة الإنسان المادية و الروحية و ذلك عندما جنحت بقوة نحو المادية تخص بها الحياة الأوربية و مـــن هنـــا و جدنا الإنسان الأوروبى وقد تنكر لكل القيـــم و المثـــل و الأخلاق و السمو الروحى و أصبح لا يجد حرجـــاً أن يفتك بكل شى يقف فى طريق هدفه فالغاية-عنده-تـــبرر الوسيلة و هذا ما عبر عنه الكسيس "كاريل" فـــى كتابـــه المشهور "الإنسان ذلك المجهول" بقولـــه: إن الحضـــارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب لأنها لا تلائمنا أننـــا قوم تعساء لأننا نتخط أخلاقياً و عقليـــاً[1]و يقـــول "اديـــك فروم": إن الإنسان الحديـــث يشـــعر بـــالقلق و بـــالحيرة المتزايدة لأنه بات عبداً للآلة التى صنعها بيده[2].

و يقول "ول ديورانت" فى كتابه مناهج الفلسفة: و ثقافتنـــا سطحية و معرفتنا خطيرة لأننا أغنياء فى الآلات فقـــراء

---

[1] ص ٣٨ : الإنسان ذلك المجهول : تعريف شفيق أحمـــد منشـــورات مكتبة المعارف-بيروت.

[2] آراء فلسفية فى أزمة العصر تأليف "أدرين كـــوح" ترجمـــة محمـــد محمود- مكتبة الأنجلو المصرية.

فى الأغراض و قد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يـــوم من حرارة الإيمان الدينى، و انتزع العلـــم منـــا الأســـس المتعالية لأخلاقياتنا و يبدو العالم كله مستغرقا فى فرديـــة مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب.

و لا شك أن هذا قد نتج لأن الفلســـفة الحديثـــة اهتمـــت بالجانب المادى و برعت فيه و أبدعت فى دعمه و تقويته بينما لم تهتم بالجانب الروحى من الإنسان هذا الاهتمـــام الذى يليق به و من ثمة فقـــدت هدوءهـــا الروحـــى و اطمئنانها النفسى.

الفصل الثانى

١-فرنسيس بيكون
٢-نشأة فرنسيس بيكون
٣-مؤلفات فرنسيس بيكون
٤-فلسفة فرنسيس بيكون
٥-منهج بيكون التجريبى
٦-مدينة العلم الفاضلة
٧-فلسفة بيكون فى الميزان

الفصل الثانى

فرنسيس بيكون

من المعروف أن الديانة المسيحية فى تطورها قد أتخمت بإضافات العامة و زوائد الكهنوت و نتيجة لهذا عاش الناس فراغاً ذهنياً ليس له قرار و عندما أثمرت العوامل الثلاثة السابقة-الإصلاح الدينى-الكشوف العلمية... الخ، كان من نتائجها المباركة ظهور الفلسفة التجريبية الحديثة التى فرضت نفسها على الناس و شغلت حياتهم حيناً من الدهر، و هذه الفلسفة التجريبية تقترن باسم الفيلسوف الإنجليزى "فرنسيس بيكون" و إن كان هذا الفيلسوف قد انطلق من الأفكار التى نبه إليها الأذهان الفيلسوف "روجر بيكون" الذى شهد القرن الثالث عشر الميلادى باكورة

فكره المتوثب حيث درس اللغة العربية و أعجب بطرقـــهم في البحث و أخذته الدهشة من دقة مناهجهم فى التفكير[1].

هذا و قد رسم "فرنسيس بيكون" منهج الاتجاه التجريبــــى الحديث حين قرر أن المجرب العادى يشبه النملـــة التـــى تجمع قوتها و تخزنه، و المفكر العقلانى الفعلـــــى يشـــبه العنكبوت التى تنسج خيوطها من المادة المستخرجة مــــن جوفها.

أما المفكر التجريبى الحديث فهو كالنحلة التى تســــتخرج مادتها الأولى من الرحيق و الزهور فى الحقول ثم تحولها جميعاً إلى عسل حلو المذاق.

---

[1] راجع تاريخ الفلسفة الغربية ص ٢٥١-٢٥٢، الكتاب الثـاني، و ص ١٢ من أعلام الفلسفة الحديثة، د/ رفقى زاهـــر الطبعـــة الأولى عـــام ١٩٧٩ م.

نشأة فرنسيس بيكون

شهدت مدينة لندن العاصمة السياسية لدولة الإنجليز ميلاد فرنسيس بيكون فى النصف الثانى من الشهر الأول من عام ١٥٦١ م و بالتحديد فى الثانى و العشرين من شهر يناير.

و قد شب و ترعرع و تفتحت عيناه فى بيئة تهتم بالسياسة و القانون و الثقافة الهادفة و الواعية فقد كان والده السير "نيفولاس بيكون" من كبار رجال القانون و السياسة الإنجليزية فى القرن السادس عشر، و كذلك كانت والدته قد انحدرت من أسرة عريقة و كانت على درجة عالية من الثقافة الدينية و العلمية حيث حصلت منها على قدر كبير محمود فأخذت هذه الأم النجيبة ترضع ابنها النابه من رحيق علمها الواسع و لم تدخر وسعا فى نشأته و تكوينه منذ نعومة أظافره لتخرج منه رجلاً قوياً، و لما بلغ سنه

الثانية عشرة أرسل إلى جامعة "كـــاميردج" حيــث لبــث أعواماً ثلاثة، ترك الجامعة بعدها سخطاً ناقماً على مـــادة التدريس و طريقته على السواء، فقد كـــره ذلـــك الجـــدل الفارغ العقيم الذى لا ينتهى فى أغلب الحالات إلى شــــئ مهم، و صحت منه العزيمة و هو ذلك اليافع الصغـير، ألا يدخر مجهوداً فى إنقاذ الفلســـفة مـــن أرض "المدرســـية" الجديدة القاحلة فيغرسها فى تربة أغنى و أخصـــب إلـــى حيث تكون الفلسفة سبيلاً إلى خـــير الإنســـان و ســـعادته فبعث فيها روح الحياة بعد أن كانت راكدة تدنو إلى جمود الموت.

و لكنه لم يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى انخرط فـــى سلك الوظائف السياسية فعين فى السفارة الإنجليزية فـــى فرنسا و ظل عاملاً بها إلى سنة ١٥٧٩ م إذ باغت القـــدر أباه فعجل بموته قبل أن ينفذ ما كان اعتزمه من توريـــث ابنه "فرنسيس" ضيعة من أرضه تكفل له اليسر و الـــثراء،

و لقد عم "فرانسيس" الحزن عندما فجع بموت أبيه فعـــاد سريعاً إلى لندنَ و هو لا يزال فى عامه الثـــامن عشـــر، و هنا وجد نفسه وحيداً بين اليتم و العدم و هو ذلك الفتـــى الناعم الذى نشأ فى أحضان السعادة و الترف، فعز عليـــه أن يروض نفسه على خشن العيش و التمس فى أعمـــال القضاة سبيلاً للحياة و أخذ يلح فى الوقت نفسه علـــى ذوى السلطان من عشيرته أن يهيئوا لـــه عمـــلاً فـــى إحـــدى مناصب الدولة السياسية، لعلها تزيح عن كاهلـــه عـــبء الحياة الذى ثقل حتى أرهقه و أعياه[1] و لكنه سرعان مـــا أخذ ينشد الجاه و الرفعة و المجد عـــن طريـــق القـــانون و السياسة فاشتغل بالمحاماة و انتخب عضواً فى مجلـــس النواب حيث لفت الأنظار ببلاغتـــه الســـاحرة و منطقـــه الخلاب فأحبه الناس و تمسكوا به و انتخبوه طرق أخـــرى حيث وصل أسمى مراتب الدولة فى أوائل القرن الســـابع

---

[1] ص ٣٦-٣٧ قصة الفلسفة الحديثة، جـــ١، أحمد أمين و آخر، طبعـــة خاصة عام ١٩٦٧ م.

عشر الميلادى فعين نائباً لوزير الحقانية ثم وزيراً لها ثـــم رئيساً للحكومة و قد نال حظوة عظيمة لدى "جــاك الأول" أثارت عليه الحقد و الحسد، هذا إلى أنه كثيراً ما دافع عن الملكية و كان ينتصر للملك على البرلمان فـــألب عليـــه خصوم عديدون لم يكد تسنح الفرصة للانتقام منـــه حتـــى أنزل به أشد العقوبات و ذلك لاتهامه بالرشـــوة و قبـــول الهدايا من المتقاضيين قبل صدور الحكم عليهم فحرم مـــن تمثيل الأمة بعد أن حرم من الوظائف العامـــة، و عبثـــاً حاول أن يسترد شرفه و منزلته و استمر يعانى البـــؤس و المرض سنوات طويلة[١]، و لقد شاء القدر لهذا الرجـــل الذى وضع أساس المذهب التجريبى أن تكـــون التجربـــة آخر مشهد له فى حياته الزاخرة.

فلقد حدث فى شهر مارس من ســـنة ١٦٢٦ م أن كـــان مسافراً من لندن إلى إحدى المدن القريبة فأخذ يفكر تفكيراً

[١] ص ١٠٣-١٠٤: دروس فى تاريخ الفلسفة.

عميقاً فى إمكان حفظ اللحوم من التعفن الذى يعتريه و ذلك بوضع قَطع من الثلج و تغطيته بها و أزمع أن يجرب ذلك بنفسه-فهو رجل التجارب العظيم-فنزل من عربته عند أول كوخ صادفه فى طريقه و ابتاع منه دجاجة قام بذبحها و أخذ يملؤها بقطع الثلج ليرى كم يحفظ لحمها دون أن يصيبها العفن و الفساد، و بينما هو مشتغل بذلك إذ داهمه مرض مفاجئ أعجزه عن أن يعود إلى لندن فنقل إلى منزل مجاور لأحد الأثرياء حيث رقد رقدة الموت و قد كتب على سرير الموت هذه العبارة: "لقد نجحت التجربة نجاحاً عظيماً" لقد كان ذلك آخر ما خطه قلمه ثم أسلم الروح فى التاسع من شهر أبريل سنة ١٦٢٦ م و هو فى الخامسة و الستين و قد كتب هذه الجملة قبل موته: إنى أضع روحى بين يدى الله و ليدفن جسدى فى طمى الخفاء و أما أسمى فإننى باعث به إلى العصور المقبلة و إلى سائر الأمم[١]

---

[١] ص ٣٩-٤٠ قصة الفلسفة الحديثة.

و لقد تحقق له ما أراد فها هى العصور و الأمم على مـــر التاريخ و الأجيال قد عنيت به عناية فائقة و قـــد تقبلـــت اسمه بكل تعظيم و تمجيد و كتب التاريخ اسمه فى ســـجل الخالدين.

مؤلفات فرنسيس بيكون

فى غمرة هذه الحياة الحافلة كان فيلسوفنا يختلس كل يـــوم ساعات يخلو فيها إلى قلمه و قرطاسه يسجل فيها ما عـــن لذهنه المتفقد من خواطر و أفكار فلا عجب أن يقرأ لــــه بعد موته تراث فكرى يفرض نفسه على الزمان و المكـان و أصداء لذكر أسمه قائمة على مر العصور و الأجيـــال و لم يشغل فيلسوفنا بتبعات المناصب العديدة التى تقلدهـــا فى الدولة فكاد بهذا يحقق حلـــم أفلاطـــون عـــن الملـــك الفيلسوف الذى يجمع فى شخصه الفكر و السلطان معـــاً، ذلك لأنه بينما كان يرقى فى المناصب السياسية كان كذلك يرقى فى فلسفته حتى بلغ منها أرفع الذرى حيث جمع بين الطرفين اللذين تمنى أفلاطون -ذات يوم- أن يلتقيـــا فـــى إنسان إنها المعرفة و النفوذ.

فلقد أيقن هذا المفكر الكبير أن من العجـــز بـــل و مـــن السخب أن تكون الدراسة النظرية غاية فى نفســـها و أن تكون حكمتها محصورة فيها لأن العلم الذى لا يجد طريقه إلى التطبيق العلمى ليس إلا عبثاً و غروراً و فـــى ذلـــك يقول "بيكون" فى مقاله "فى الدراسة" : "إما أن تنفق فـــى الدراسة النظرية وقتاً طويلاً فضرب من الخمول و إما أن يزداد بها فحب للظهور و إما أن تصدر فى رأيـــك عـــن قواعدها وحدها دون غيرها فذلك جـــانب الطرافـــة مـــن العالم...إن الدراسة النظرية لا تعلم كيفية اســـتخدامها إذ استخدامها حكمة خارجة عنها و هى خير منها و تكتســـب بالملاحظة[1]".

و لعمرى إن هذه الكلمات القليلـــة التـــى أبدعـــها ذلكـــم الفيلسوف النابه لصيحة مدوية تضع حداً فاصلاً للفلســـفة المدرسية لأنها تنادى للتفرقة بين العلم و بين اســـتخدامه

---

[1] ص ٤٠-٤١: قصة الفلسفة الحديثة.

و هى ترفع من شأن الملاحظة و النتائج العملية للدراسة العلمية، إنها دعوة للاهتمام البالغ بالملاحظة و هى الدعوة إلى الملاحظة و التجربة العملية التى نادى بها "بيكون" ليس لأن رغب عن الكتب و انصرف عن حياة التأمل بل بقيت الدراسة و التفكير حصنه الذى يلجأ إليه المرة بعد الآخرى، فاسمع إليه و هو يتحدث فى مقدمة كتابه "حكمة القدماء" إننى لا أطيق الحياة بغير فلسفة و يقول: إننى رجل خلقت أقرب إلى الأدب منى إلى أى شئ آخر.

نعم كان "بيكون" إلى جانب الحياة العملية مفكراً عميق التفكير كاتباً رائع البيان، و أجمل إنتاجه الأدبى طائفة من "المقالات" وجهها بأسلوب بارع أخاذ حتى جاءت فى جمال لفظها و جمال معناها مجموعة نفيسة نادرة من أروع ما أنتجه الفكر الإنسانى منذ نشأته إلى اليوم، فقد بلغ فيها من جودة النشر ما بلغه "شكسبير" من روعة

الشعر. و إن كانت الكتب تنقسم إلى مراتب ثلاثة كما قال "بيكون"

١-بعض الكتب ينبغى أن يذاق

٢-و بعض الكتب ينبغى أن يزدرد

٣-و بعضها القليل خليق أن يمضغ و يهضم

لقد كانت مقولاته-بدون شك-من هذا القليل النادر الذى يستحق المضغ و الهضم، إنها تصور فلسفة و تصوير نزعته الدينية التى يذهب إلى العقيدة بأقل العقل يكفى وحده دون الوحى و الإلهام لتنظيم الكون و قد اتهمه معاصروه بالإلحاد و لكنه ينكر ذلك فى مقال كتبه فى الإلحاد يقول فيه: إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد و لكن التعميق فيها ينتهى بالعقول إلى الإيمان.

أهم مؤلفات فرنسيس بيكون

إذا تجاوزنا مقالات "بيكون" المشهورة التى طال حديثنا عنها فإنه يبقى أن نستعرض باقى مصنفاته.

لقد ندم "بيكون" على ضياع الكثير من وقته الجرى و البحث عما لا يفيد من زينة الدنيا و متع الحياة فلم يخصص من وقته لخدمة الحكمة أقل القليل و مع ذلك فإن مصنفاته تمثل على حد قول "هنرى توماس" ما يمكن أن توصف بأنها أعظم إنتاج فكرى إنسانى منذ عصر "أرسطو" حتى أيام "بيكون" و قد بلغ عدد مصنفاته ما يزيد على العشرين مصنفاً تناول فيها جميع جوانب الآداب و العلوم و الفنون تقريباً[1] و هكذا استطاعت أعماله العلمية أن تحقق له ما فيه طبقة الآفاق و تدارستها الأجيال جيلاً بعد جيل مما لم يستطع أن يصل إلى شئ منه عن طريق السياسة أو غيرها، و قد كان "بيكون" يفكر باستمرار فى إعادة بناء الفلسفة و تجديدها و عقد العزم على أن تكون هذه المنهجة هى محور دراسته.

---

[1] أعلام الفلسفة ص ٢٠٤.

و لكن العمل العلمى الرئيسى الذى كـــان "بيكــون" يــود إنجازه لم يكتمل و لم يكن له أن يكتمل أيضا فالخطة التــى وضعها كانت خطة عملاقة تفوق طاقة أى فرد مهما كــان متفرغاً، فما بالكم إذا كان "بيكون" لا يجد إلا جزءاً قليـــلاً من وقته ينفقه فى سبيل العلم و الفلسفة و لم يكن "بيكــون" يقنع بشئ أقل من التجدد الشامل للعلم فى جوانبـــه كلـــها و قد رسم "بيكون" خطة لنفسه شمل النقاط التالية:

أولاً: الكشف عن أسباب توقف العلم و جموده منذ عصـــر اليونان.

ثانياً: وضع تصنيف جديد للعلوم و تجديد مجالات عملها.

ثالثاً: وضع منهج جديد لتفسير الطبيعة و ظواهرها.

رابعاً: الاهتمام بالعلوم الطبيعية الحقيقية و البحث فـــى جزئياتها و فى ظواهرها.

خامساً: الإشارة إلى سلسلة الابتكـــارات و الاكتشـــافات التى ستكون محور اهتمام البحـــث العلمـــى فـــى المستقبل.

سادساً: رسم صورة لمدينة العلم الفاضلة التى يتصورها لإسعادَ البشر.[1]

و منذ "أرسطو" كانت المعرفة تطلب لذات المعرفة و لكن "بيكون" كان يرى أن المعرفة قوة، فهى ليست مجرد فكرة نتمسك بها، و إنما هى عمل يتحتم علينا إنجازه فهو يضع الأساس لا لمذهب أو مبدأ و إنما "الفائدة عملية و قوة لها أثرها فى حياة الناس و تقدمهم".

هذا و لم يتم من مشروع "بيكون" العلمى الضخم الذى أطلق عليه اسم "الاحياء العظيم" إلا ثلاثة جوانب فقط عرضتها فى مؤلفاته التى اشتملت على:

١-المقولات: و قد عالج فيها أنواع مختلفة من المعرفة.

٢-الأورجانون الجديد أو الإدارة الجديدة: و قد عرض فيه منهجه العلمى الجديد الذى عارض به منهج "أرسطو".

---

[1] ص ٤٠ د/محمود زقزوق، دراسات فى الفلسفة الحديثة.

٣-في قيمة العلوم و نموها: و قد تضمنت نقداً لأنواع العلوم، كما ألقى نظرة على الأوضاع المستقبلية.

٤-اطلانتس الجديدة: و قد عرض فيه مشروعه للمجتمع المثالى لمدينة العلم.

٥-أحكام القانون في تنظيم القوانين الإنجليزية.

٦-الاحياء العظيم: حاول فيه أن يحصى العلوم معتمداً على قوى النفس الثلاث "الذاكرة، المخيلة، العقل". فعلم الذاكرة: هو تاريخ، و علم المخيلة: هو الشعر، و علم العقل: هو الفلسفة.

و له بالإضافة إلى ذلك مؤلفات أخرى فى مجالات الأدب و التاريخ و الفنون و القانون و لعل أشهر أعماله الأدبية "المقولات" و هى مجموعة من المقالات فى الأدب و السياسة و الاجتماع و الأخلاق و لقد كانت هذه المقولات هى السبب المباشر فى تلك الشهرة العريضة التى نالها فى مجتمعه الإنجليزى. حيث قد بلغت الغاية فى

روعة الأسلوب و جمال اللفــظ و ثــراء المعنى[1]، هــذا و يلاحظ على هذا الإنتاج القوى المفيد ليكون أمران:

أولهما: أن "بيكون" كان يحاول بكل الطــرق أن يلفــت أنظار الناس إلى بحوثه المهمة.

ثانيهما: عنايته الفائقة و المركزة بالعلوم الطبيعية حتــى ليخيل إلى القارئ أن هذه العلوم هــى العــرض الأساسى و الــهدف الســامى مــن وراء هــذه المصنفات التى أبدعها ذلك الفيلسوف التجريبــى العظيم.

[1] ص ١٥٢ قصة الفلسفة "ديورانت" نقلا عن ص ٤١، دراســات فى الفلسفة الحديثة، د/زقزوق.

فلسفة فرنسيس بيكون

لقد جمع "فرنسيس بيكون" أهداف فلسفته فى تلك الكلمة الهادفة التى نطق بها و سجلها التاريخ بكل إجلال و احترام. إنه يقول: "ينبغى إلا نمد العقل بالأجنحة بل يجن أن نثقله بالأغلال حتى نحول بينه و بين القفز و الطيران".

إن فيلسوفنا بهذه الكلمة الشاملة الجامعة يحدد المنهج الذى سوف يسير على ضوئه فهو:

أولاً: يخلص العقل البشرى من أوهام القرون الوسطى التى شاعت و ملأت عقول كثير من الناس فى هذه الحقبة من تاريخ البشرية.

ثانياً: يفرض على هذا العقل من الأغلال و القيود ما يكفل له الوصول إلى نتائج تكون أقـــرب إلـــى الصحة و أدنى إلى اليقين و الواقـــع الإنســـانى بعيداً عن الأوهام و موروثات البيئة.

ثالثاً: فإن فيلسوفنا يستهدف إقامـــة حيـــاة فاضلـــة[1] أساسها العلم و غايتها الأمن و هدفها الســـعادة القصوى لبنى البشر جميعاً لقـــد أراد "بيكـــون" تجديد العلوم تجديداً شاملاً فى كل جوانبـــها و ذلك يجعل القاعدة الشاملة لفلسفته قاعدة عمليـــة تتمثل فى تزويد الجنس البشرى بالسيطرة علـــى قوى الطبيعـــة عـــن طريـــق الاكتشـــافات و الابتكارات العلمية و من هنا فإنـــه كـــان مـــن أنصار فصل الفلسفة عن الدين حتـــى تـــؤدى

---

[1] ص ١٧، أعلام الفلسفة الحديثة، د/رفقى زاهر.

وظيفتها دون قيود أو عوائق تعوق سـيرها أو تعوق حركتها أو توقف تقدمها أو تشوه حقيقتها، و مع ذلك فإنه كان يعتز بالدين الذى نشأ فـى رحابه بل و دافع عن "الحقيقة المزدوجة" و هى تلك و هى تلك النظرية التى دعـا إليـها فـى أوروبا بعض أتباع ابن رشد و تقوم على أساس اعتماد حقيقتين:

١.حقيقة الوحى

٢.حقيقة العقل

هذا و سوف نعرض لبعض أفكار هـذا الفيلسـوف العظيم.

المنهج الجديد

لقد كانت الفلسفة طوال القرون الوسطى تقوم على خطأ لا يملك أن يؤدى إلى علم جديد، فقد اتخذت القياس المنطقى سبيلا ليـــأييد المذاهـــب و الآراء "و القيـــاس المنطقـــى الأرسطى وسيلة عقيمة فى كثير من وجوهه لأنك مضطر أن تسلم بمقدماته تسليماً لا يجوز فيه الشـــك" و الإنســـان محصور فى حدود المقدمات التى سلم بها أولاً، و علـــى ذلك فإذا أردنا إصلاح الفلسفة و انتشالها من الهوة التـــى ترددت فيها فلا بد من ثورة تهدم أسلوب البحـــث القديـــم البالى و من ثمة فقد نهض "بيكون" و وضع أساساً جديـــداً للبحث كانت أولى خطاه الملاحظـــة و التجربـــة، و قـــد اشترط فيهما أن يكون استخدامها ببطء شديد و حذر أشد، و من المعروف أن البطء و الحذر هما من أبرز ما يمـــيز فلسفة "بيكون" و يطبعها بطابع خاص و ســـمات معينـــة

تميزها عن فلسفة المفكرين في العصور القديمة و العصور الوسطى.

فكثيراً ما بدأ الفلاسفة بالملاحظة و لكنهم كانوا يفسدون هذا البدء الصحيح بالتسرع بأن يقفزوا من ملاحظة الجزئيات إلى الأحكام العامة الكلية قفزاً لا يحتاطون فيه بالحذر. فقد كانت تكفيهم مجموعة قليلة من الأمثلة التي يستجمعونها بالملاحظة ليقيموا على أساسها ما شاءوا من نظريات فلسفية عامة.

أما فيلسوفنا فإنه لا ينهج هذا النهج و إنما تتسم ملاحظاته و تجاربه بالأناة الشديد و الحذر الأشد و يأخذ في تحذير الناس و يوصيهم بالأناة و الصبر فلا يبدءون في مرحلة التعميم إلا إذا جمعوا من الأمثلة الجزئية أكبر عدد مستطاع[١].

---

[١] ص ٤٣، قصة الفلسفة الحديثة.

أراد "بيكون" إذن أن يضع للعقل الإنساني خطة جديدة كى يسير عليها، و لكنه قبل أن يفعل ذلك كان عليه أن يقــوم بتطهير العقل البشرى من كل ما يشــوبه مــن تعصــب و جمود و من كل ما يعتريه من الأوهام و الأخطاء التــى تحول بينه و بين الوصول إلى التفكير السليم إذا أردنا إلى هذا الهدف المنشود فلا بد لنا من القيام بخطوتين هــامتين أو مراعاة شرطين أساسيين و هما:

أولاً: شرط ذاتى يتمثل فى تطهير العقل من كل الأحكـــام السابقة و الأوهام و الأخطاء التى انحدرت إليه مـــن الأجيال السابقة كما قلنا ذلك سابقاً.

ثانياً: شرط موضوعى يتمثل فى رد العلوم إلى الخـبرة أو التجربة و هذا يتطلب معرفة المنهج القويـــم للفكــر و البحث و استخدام هذا المنهج فى العلوم الطبيعيـــة،

و هذا المنهج ليس شيئاً آخر غير منهج الاســـــتقراء، فعلى الاستقراء الحقيقى يتوقف الإصـــــلاح المنشـــود للعلوم[1] و فيما يلى بيان للطريقة التى يمكن بها تطهير العقل البشرى.

[1] ص ٤٦، د/محمود زقزوق، دراسات فى الفلسفة الحديثة.

الأوهام الأربعة

لاحظ "فرنسيس بيكون" أن العقلية الإنسانية قد رسخ فيها على مر العصور و تتابع الأيام من الأوهام و الخرافات و التقاليد الفاسدة ما يبعدها عن جوهرها الصافى و معدنها الأصيل، و من ثم فإن "بيكون" يقدم لنا تحليلاً للأخطاء الشائعة مع بيان الأسباب المؤدية إليها و ذلك عن طريق عرضه لهذه الأوهام و التى يعتبرها مجرد عثرة فى سبيل البحث العلمى، و يعتبر "رسل" حديث "بيكون" عن الأوهام من أهم ما جاء فى فلسفة "بيكون" و من أكثرها دقة و أعظمها تشريفا.

هذا و سوف نتكلم -بإيجاز- عن هذه الأوهام التى تراكمت على العقل البشرى و أبعدته عن التفكير القويم و المنهج المستقيم.

أولاً: أوهام الجنس

و يقصد بها تلك الطائفة من الأوهام التى رسـخت فى أذهان الناس و هى ترجع إلى نقصـان العقـل البشرى و ضعفه بوجه عام، فهو يعمـم حيـث لا يجوز التعميم و يتوهم وجود أشياء لا أسـاس لـها مجرد أنها صادفت هوى فى نفسه أو رغبة خاصـة عنده، فأمانينا تتحكم فى اتجاه تفكيرنا و لـذا فـإن الإنسان يزعم باطلاً أنه مقياس الحقائق مما يملـك من إدراك حسى و إدراك عقلى و الواقـع أن مـا يدركه الإنسان بعقله و حواسـه ليـس إلا صـورة لنفسه أكثر منها تصويراً للكون الخـارجى، فليـس العقل كالمرآة الصافية التى تعكس صورة الأشـياء كما هى تماماً، و لكنه كالمرآة الملتوية التى تمـزج

صورة نفسها بصـــورة الأشـــياء التـــى تصدرهـــا فتصيبها بالفساد و التشويه[1].

و لذا فإن توقعنا أن نجد فـــى الظواهـــر الطبيعيـــة نظاماً يزيد على ما هو موجود فيها فعلاً هكذا نلجـــأ إلى تصديق الخرافات و نميل إلى الأخـــذ بـــالتنجيم و الأساطير.

<u>ثانياً</u>: أوهام الكهف

و هذه الأوهام ما هى إلا ضرب من الضعف العقلـــى أيضا و ذلك لأن كل ما يحيط بكل فرد مـــن أفـــراد الجنس البشرى من ظروف العيش و ملابسات الحيـــاة و مقومات الشخصية كالمستوى الثقـــافى و طبيعـــة المهنة و البيئة الاجتماعية كل أولئك يحصـــر عقليـــة

---

[1] ص ٤٤، الفلسفة الحديثة.

الفرد فى إطار معين من التفكير و يفرض عليه نوعـاً من العزلة حتى كأنه فى واد ناء أو فى كهف سـحيق، إنه يصبح أسيراً لعاداته و تقاليده و صـدى تربيتـه و تأتى آراؤه صورة منها إنه يعيش فى كهف أشبه ما يكون بكهف أفلاطون حيث كان يرى أصحاب هـذا الكهف الأشياء على غير وجهها و من هنـا وجدنـا اختلافاً فى الآراء فبعض العقول مثـلاً تـنزع إلـى المبالغة فى إظهار التشابه بيـن الأشـياء، و بعـض العقول تنزع إلى التحليل و ملاحظة أوجـه التبـاين و الخلاف بين الأشـياء-كالعلمـاء و المصوريـن- و طائفة أخرى تميل إلى البناء و التركيب-كالفلاسـفة و الشعراء-و طائفة أخرى تميل لما هو قديـم بينمـا طائفة غيرها تتحمس لكل ما هو جديد، و قـد تمـر بإنسان أزمة عاطفية خاصة فيستنكر الحب و يكـره جميع النساء، و هكذا تأتى الأحكام حسب المؤثـرات الشخصية.

ثالثاً: أوهام السوق

يلتقى الناس فى المقاهى و الأندية العامة و الأسـواق التجارية و غيرها من مواطن الاجتماع فيتحادثون فى مختلف الشئون بلغة مشتركة بعيدة كـل البعـد عـن المنطق، و فى ظل هذه اللقاءات تفقد الألفاظ دلالتـها الحقيقية و تعجز اللغة عن تحقيق وظيفتها التى هـى التعبير الصادق عما يستقر فى الذهن. مـن ذلـك أن الناس ربما صفقوا الخطيب فى حفل عام فإذا ما خـلا كل منهم لنفسه وجد الخطاب أهون مـن أن يسـتحق هذا التصفيق و أن ذلـك كـان لمجـرد المشـاركة الوجدانية[1] و لا شك أن هذا يؤدى إلى تعطيل شـديد للعقل و هذا بدوره يؤدى إلى الاستعمال الخاطئ للغـة مما يؤدى إلى الغموض و الالتباس.

---

[1] ص ١٨، أعلام الفلسفة الحديثة، د/رفقى زاهر.

رابعاً: أوهام المسرح

يغتنى الناس فى كل زمان و مكان بمشاهير الرجال و يتلقون آراءهم بالتسليم التام و القبول القوى دون أن يتطرق فى أذهانهم الشك فى صحة هذه الآراء أو الخطأ فيها و هذا ما يطلق عليه أوهام المسرح.

و من ذلك ما حدث لمعاصرة "جاليليو" فقد قرر فقد قرر هذا العالم أنه لو قذف من مكان عال بحجرين زنة أحدهما رطل و زنة الآخر عشرة أرطال لوصل كلاهما إلى الأرض فى وقت واحد و قد أجرى "جاليليو" هذه التجربة على ملأ من أساتذة الجامعة، و رغم نجاح التجربة و صدق هذه الحقيقة إلا أن المشاهدين كذبوا أنفسهم و أعينهم و ذلك لأن "أرسطو" قد قرر فى كتابه أن الحجر الذى زنته عشرة أرطال يصل إلى الأرض فى عشر الوقت الذى يصل فيه حجر زنته رطل واحد، و مثل

المشاهير فى هذا الأباء و المعلمون و كذلك ســـائر من يتلقى المرء آراءهم بالتسليم المطلق و القبـــول التام دون مناقشة أو تفكير أو تدقيق أو تمحيص[1].

[1] ص ٢: قصة الفلسفة الحديثة.

منهج بيكون التجريبى

لقد استقر فى الفكر البشرى أن البرهنة قسمان:

١-قياسية

٢-استقرائية

و ذلك لأن الذهن إما أن ينتقل من الكلى إلى الجزئى أو العكس و قد ألم "أرسطو طالس" بهذين النوعين و لكنه أهتم كل الاهتمام بنوع خاص من أنواع البرهنة القياسية ألا و هو القياس المنطقى المشهور، و لم تصادف أية نظرية من نظرياته نجاحاً مثل ذلك النجاح الذى صادفه قياس هذا أثناء القرون الوسطى و قد بالغ المدرسون فى استعماله إلى حد نفر بعض الباحثين منه و رأينا هجوماً عليه من عدة مفكرين و قد اتجه مفكرون آخرون من رجال عصر النهضة نحو الملاحظة و التجربة يستفتونها، ثم جاء "بيكون" و حقر القياس المنطقى و حمل عليه حملة قاسية و اتجه إلى الاستقراء و التجربة فهى-عنده-العلم

الصادق و الوسيلة الناجمة لفهم الظواهر الكونية، و مــن شاء معرفة الطبيعة فليرجع إلى الطبيعة نفسها[1].

هذا و يمكن بيان الطريقة التجريبية التى ابتدعها "فرنسيس بيكون" و ذلك بعد أن خرج "بيكون" بالعقل الإنسانى مــن دائرة الأوهام المطبوعة فيه-و هو الجانب الســلبى مــن منهجه-و بعد أن نقاه من سائر الخرافات المفروضة عليه و قص أجنحته التى طالما حلق بها فــى ســماء الخيــال و عالم الأوهام و بعد بهما عن أرض الواقع، بعد هذا كله أخذ يكبله بالقيود و يثقله بالأغلال حتى يصير فى بحثــه موضع الثقة و الاطمئنان و حتى تكون نتائجه أقرب إلــى الواقع و أدنى إلى اليقين و لذلك لا بد أن يسير العقل على الخطوات التالية:

---

[1] ص ١٠٩: دروس في تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور و يوسف كرم.

الخطوة الأولى: جمع الحقائق

إذا أردنا أن ندرس ظاهرة ما فإن أول ما يجب علينا هو جمع الحقائق و المعلومات التى تكون تاريخياً و واقعياً لهذه الظاهرة.

الخطوة الثانية: استخلاص الصورة

و بفضل الحقائق و المعلومات المجموعة عن الظاهرة تتكون فى أذهاننا الصورة العامة لها أو القانون الذى تسير على سننه.

الخطوة الثالثة: جدول الاستنتاج

تصنف الحقائق و المعلومات التى جمعت أولاً فى ثلاث قوائم:

١-**قائمة الإثبات:** و فيها توضع مجموعة الأسباب المثبتة للظاهرة.

٢-**قائمة النفى:** و فبها تجمع الأشياء النافية للظاهرة.

٣-**قائمة الفحص و المقارنة:** و فيها تسجل الأشياء التى تتفاوت بينها الظاهرة قوة و ضعفاً.

الخطوة الرابعة: التنحية و العزل

علينا فى هذه الخطوة أن ننحى الأشياء التى نتأكد أنها ليست أسباباً حقيقية للظاهرة و لا نزال نعزل هذه الأشياء شيئاً فشيئاً شئ حتى تتعرف على السبب الحقيقى.

الخطوة الخامسة: السبب المرجح

ربما بقى بعد الخطوات الأربع الماضية سببان أو أكثر يحتمل أن يكـــون كـــل منهما هو سبب الظاهرة و حينئذ نعمـــل الحدس فيما حـــول الظـــاهرة و نعيـــد النظر مراراً حتى تنتهى إلـــــى ســـبب واحد يكون هو السبب الحقيقى للظاهرة و على ذلـــك فـــإن هنـــاك طريقتيـــن للوصول إلى ما ننشده:

الطريقة الأولى: و تتمثل فى جمع أكـبر عدد من الأمثلة بقدر المستطاع.

الطريقة الثانية: تقوم على تنظيم هـــذه الأمثلة و تبويبها و تحليلها و إبعاد مـــا

ظهر منها إنـــه ليـــس لـــه بالظـــاهرة المبحوثة علاقة علة و معلول.

و تقضى هذه الطريقة بوضـــع قوائـــم الظواهر التى تشترك فى صفة معينـــة هى موضوع البحث، و قوائم أخـــرى بالظواهر التى تفتقر إلى هذه الصفة، و قوائم ثالثة بالظواهر التى تملـــك هـــذه الصفات بدرجات متفاوتة، و على هـــذا النحو فإننا نأمل فـــى الوصـــول إلـــى صورة الظاهرة التـــى بيـــن أيدينـــا و صورة الظاهرة عنـــد "بيكـــون" هـــى قانونها.

مثال تطبيقى

و لتطبيق ذلك عملى على ظاهرة "الحرارة" مثلاً إذا أردنـــا دراسة هذه الظاهرة، فإن علينـــا أن نجمـــع المعلومـــات

المتعلقة بالحرارة و الحقائق المتصلة بها ثـــم نســـتخلص الصورة العامة لها و نقوم بعد ذلك بالاستنتاج، فتصنـــف المعلومات فى ثلاث قوائم، فنسجل فـــى قائمـــة الإثبـــات الشمس و دم الحيوان الحى، و فى قائمة النفى نضع القمر و دم الحيوان الميت إلى آخر ما يقابل قائمة الإثبـات و لا يتصف بالحرارة، و من قائمة المقارنة توضـــع الشـــمس و النار و دم الحيوان الحى مما تتفاوت بينها الحرارة قـوة وضعفاً ثم تأخذ فى عزل الأشياء التى نتـــأكد مـــن أنـــها ليست سبباً فى الظاهرة، فنعزل مثلاً دم الحيوان لأن مـــن دم الحيوان ما يكون بارداً، و أخيراً نعمل الفكر للتعـــرف على السبب الحقيقى للحرارة فنصل إلى أن هذا الســـــبب هو الحركة[١] فهى علة الحرارة إذن.

---

[١] راجع قصة الفلسفة الحديثة جـــ١ ص ٦٨، ص ٢٠، ص ٢١: مـــن أعلام الفلسفة الحديثة.

و هكذا عرف "بيكون" كيف يستفيد مـــن الأمثلـــة التـــى يجمعها عن طريق الملاحظة و التجربة فى الوصول إلـــى النتائج الجديدة.

و من هنا فيجب على الباحث أو على المجرب أن يكـــون يقظاً و فى أعلى درجات اليقظة و أن يتحلـــى بـــالصبر و الأناة و ألا يغفل عن تسجيل كل ما يراه أثناء التجربة.

و لذا فإن "فرنسيس بيكون" يوصى دائماً بأن لا ينبغـــى أن نكون مثل النمل الذى كل همه تكديس الغذاء لاســـتهلاكه فيما بعد، و لا أن نكون مثل العناكب التى تغزل الأشـــياء من داخلها، و إنما ينبغى علينا أن نكون مثل النحل الـــذى يجمع مادة طعامه ثم يهضمها و يحولها بفضـــل طبيعتـــه الخاصة متخرج فى النهاية شيئاً جديداً[1].

---

[1] ص ٥١: دراسات فى الفلسفة الحديثة، الطبعة الأولى عام ١٩٨٥، د/ محمود زقزوق، و تاريخ الفلسفة العربيـــة جـــ٣، ص ٨٢، أعـــلام

و من ثم فإن الجانب السلبى فى فلسفة "بيكون" تتمثل فـــى تطهير العقل من الأوهام، و أما الجانب الإيجابى فيتمثـــل فى المنهج الاستقرائى القائم على الملاحظة و التجربة.

الفلسفة للدكتور/رفقى زاهر، و قصة الفلسفة الحديثة ليوسف كـــرم، و ص ١٣٨ ليوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية.

مدينة العلم الفاضلة

ينشد فيلسوفنا "فرنسيس بيكون" من وراء بحثـــه كلـــه أو فكره كله إقامة المجتمع المثالى أو المدينة الفاضلة و هـــو من ظلام كتاب القيم "اطلنطس الجديدة" فيه يرمى "بيكون" إلى تأسيس جمهورية علميـــة علـــى غـــرار جمهوريـــة "أفلاطون" أو مدينة الفيلسوف المسلم الشهير "الفـــارابى" التى أسماها المدينة الفاضلة ذلك لأن نهضـــة العلـــوم لا يمكن أن تتم على يد فرد واحد بل لابد أن تتكاتف عليـــها جهود مختلفة فتتجه طائفة نحو الظواهر الكونية و ترقبـــها ثم تقيد ما اهتدت إليه من ملاحظات فى بيئتها أو بيئـــات أخرى وصل إليها الرحالة أو السائحون، و تبحث طائفـــة أخرى من العلماء و المفكرين فى بطون الكتب رجـــاء أن تكتشف فكرة جديدة أو تقـــف علـــى ظـــاهرة لاحظـــها

الأقدمون و لم ينتبهوا لها، و تحاول طائفة ثالثة أن تقـــوم بإجراء التجارب و الملاحظات[1]...إلخ.

إن المدينة التى ينشدها "بيكون" تقوم على الاكتفاء الذاتـــى فتستهلك ما تقوم بإنتاجه و تختار حكومتها من بين العلماء و الأطباء و المهندسين و هدف هذه الحكومة هو توفـــير السعادة الحقيقية للمدينة كلها على أساس علمى صحيـــح، و هذه المدينة ينبغى أن تحافظ على هيبتها فلا تستقبل أحد من الغرباء حتى لا يفسدوا طبيعة الحياة فيها و إن كـــانت ترسل علماءها إلى الأقطار الأخرى كـــى ينقلـــوا إليـــها خبراتهم و يعودوا من هذه الأفكار بما يمكـــن أن يقعـــوا عليه من خبرات جديدة[2].

---

[1] ص ١٠٧-١٠٨: دروس فى تاريخ الفلسفة.

[2] قصة الفلسفة الحديثة جـــ١ ص ٣٨.

فلسفة بيكون فى الميزان

لقد تربع "بيكون" على عرش البشـــرية بمنهجـــه الجديـــد و تردد اسمه كثيراً و لا يزال بين العلمـــاء و المفكريـــن و الفلاسفة فقد كان أول الطريق لهؤلاء الفلاسفة العظمـــاء الذين غيروا مجرى التاريخ البشــــرى و أثـــروا الحيـــاة الفكرية و العلمية بالشئ الكثير و لقـــد كـــانت نظريتـــه الخاصة بالأوهام الأربعة التى تنتـــاب العقـــل الإنســـانى و التى تبعده عن الأحكام الصائبة و الآراء الصادقة حدثـــاً فلسفياً طريفاً هز حياة الناس هزاً عنيفـــاً، و بـــدل فـــى أذهانهم كثيراً من الحقائق، و غير كثيراً من المعلومـــات عن هذا الكون، و أطلق فى عقولـــهم طاقـــة الاســـتدلال الفكرى، و فجر فيهم حب البحث فى أحضـــان الطبيعـــة لكشف أسرارها و الوقوف على قوانينها و معرفة سننها.

و كان منهجه الجديد منطلقاً لنهضة شاملة، و من هنا فإننا نقدر لهذا الفيلسوف جهده العظيم الذى بذلـــه مـــن أجـــل رفاهية البشر و تقدم له الشكر و تعترف بمنزلته و ســـمو فكره و ندين له بالجميل، و مع هذا كله فإننا نقرر أن مـــا وصل إليه هذا الفيلسوف قد وصل إليه المسلمون من قبل. و وقفوا على هذه الأوهام و أوصوا باستبعادها و ذلك كى يمارس العقل وظيفته الطبيعية فى هداية الإنسان و يرجـع هذا كله إلى توجيهات القرآن الكريم التـــى تدعـــوا إلـــى إعمال العقل و تحريره من كل وهم يجنح به عن الطريـق القويم، و إذا عدنا إلى آياته البينات نجد أن كثيراً من هـذه الآيات الكريمة تنادى بتحطيم التبعية المطلقـــة للعظمـــاء و الآباء و هذا ما يطلق عليه "بيكون" اسم أوهام الســـرح، و تقرأ فى هذا قول الله جل جلاله: (و قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبرائنا فأضلونا السبيل)[١]. و قولـــه ســـبحانه و تعالى: (و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع مـــا

---

[١] الأحزاب آية ٦٧.

ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلـــون شـــيئاً و لا يهتدون)[1] كذلك نبه القرآن الكريم إلى سوء الذوبان فـــــى المجتمع و الخضـــوع لقيمـــه و تقـــاليده دون تدبـــير أو تمحيص أو تفكير أو تدقيق أو تحقق بـــل و يشـــير إلـــى العواقب الوخيمة المترتبة علـــى هـــذا فيقـــول ســـبحانه و تعالى: (و إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عـــن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن و إن هم إلا يخرصـــون)[2]، و هذا ما يسميه "بيكون" بأوهام الجنس.

و أما أوهام الكهف المتمثلة فى التقوقع بين غرائز النفـــس و عواطفها و أحاسيسها التى تصنعها الضروب الخاصـــة و الملابسات الشخصية و تخرج الإنسان كثيراً عن جـــادة الحق و سواء السبيل، فقد أشاد القرآن الكريم إليـــها فـــى قوله جل شأنه: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكـــون

---

[1] البقرة آية ١٧٠.

[2] الأنعام آية ١١٦.

عليه وكيلا، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلـــون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[1].

بقى بعد ذلك أوهام السوق و هى كما نعلم سابقاً تتمثل فـــى تأثر المرء بما يدور عادة فى الأماكن العامة من أحـــاديث و مناقشات إلى حد يخرج بالإنسان مقتضيـــات اســـتقلاله الفكرى، و قد ورد فى القرآن الكريم التحذير مـــن هـــذا كثيراً، و من ذلك قول الله جل جلاله: (ثم جعلناك علـــى شرعة من الأمر فاتبعها و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمـــون أنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً و إن الظـــالمين بعضـــهم أولياء بعض و الله ولى المتقين، هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون)[2].

---

[1] الفرقان آية ٤٣-٤٤.

[2] الجاثية الآيات من ١٧ إلى ١٩.

و قد ورد فى هذا المعنى التوجيه النبوى الكريم[1] فى قولـه صلى الله عليه و سَلم: (لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مـع الناس، إن أحسن الناس أحسـنت، و إن أسـاؤا أسـأت، و لكن وطنوا أنفسكم إن أحسن النـاس أن تحسـنوا و إن أساؤوا أن تجتنبوا إسائتهم).

و الواقع أن الإسلام قد بلغ فى مقاومة الأوهام و الحـرص على انتزاعها من العقل الإنسانى حداً يفوق كل وصـف و يغنى عن كل تعليق و من المواقف الرائعة فـى هـذا المجال ما صنعه رسول الله صلى الله عليه و سـلم يـوم وفاة ولده إبراهيم فقد تصادف أن انكشفت الشمس يومئـذ فربط الناس بين الحدثين متصورين أن الكسوف لم يحدث إلا تكريماً للرسول الكريم صلى الله عليه و سلم الذى فقـد ابنه الوحيد الذى أقر الله به شيخوخته الحانية.

---

[1] ص ٢٢-٢٣: أعلام الفلسفة الحديثة، د/رفقى زاهر.

و قد كان من الممكن استغلال هـــذه الفرصـــة الســـانحة لترسيخ الإيمان فى القلوب، و لكن الرسول الكريم يـــأبى أن يقوم الإيمان على أساس من الوهم الكـــاذب فســـارع التصدى لانتزاع هذا الوهم من النفوس قائلاً: (إن الشـمس و القمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لمـــوت أحـــد و لا لحياته).

و لا يمكننا القول بأن "بيكون" قد قرأ القرآن الكريم أو أنــه قد اطلع على أحاديث المصطفى صلى الله عليـــه و ســـلم و لكن من المؤكد أن التراث الإسلامى الفلسفى قد تأثر به بصورة أو بأخرى فلاسفة العصور الوسيطة و فلاســـــفة النهضة، و قد حدد "ابن رشد" الموقف المناسب من فكـــر المشاهير من الأقدمين حتى لا نسلم بأقوالهم أو بأفكـــارهم تسليماً تاماً، إنه يقول: (فقد يجب علينا أن ننظر فى الـــذى قالوه من ذلك و ما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منهم موافقـــاً للحق قبلناه منهم و سررنا به و شكرناهم عليه، و ما كـــان

منهم غير موافق للحق نبهنا عليه و حذرنا منه و عذرناهم)[1].

و كلمة "ابن رشد" هذه على وجازتها تحمل في طياتها موقعة الموضوعي من كلام القدماء، فهو لا يقبله كله شأن الذين يقدمون كل قديم، كما إنه لا يرفضه كله بحجة أنه مجرد وهم و ضلال و لكن الرجل يعمل فكرة في أقوال السابقين فإن وافق الحق أخذ به و شكرهم على هذا، و إن كان غير ذلك تركه مع التماس العذر لهم.

هذا و أما طريق "بيكون" التجريبية و خروجه من نطاق المنطق الصوري في البحث، فمسبوق بها من علماء المسلمين أمثال "ابن الهيثم" و "ابن النفيس" و "جابر بن حيان"، و هذا ما يقرره "جوستاف لوبون" حين قال: (إن القاعدة عند العرب جرب و شاهد و كرر التجربة تكن

---

[1] ص ٢٤-٢٥: د/رفقى زهير، أعلام الفلسفة الحديثة.

عارفاً و عند الأوروبيين إلى منتصف القرون الوسطى اقرأ فى الكتب و كرر ما يقوله العلماء تكن عالماً)[1].
و بعد فإن عظمة "بيكون" تتجلى فى أنه كان يعتقد أن العلم وسيلة لغاية عملية فى حياة الإنسان، فالعلم عنده قوة و هو أطول القوى بقاء فيستطيع الإنسان أن يكون سيد الطبيعة، يفهم كنهها الحقيقى فهماً صحيحاً، فدراسة العلم الخارجى لا تقصد إلا لكى تعين العقل البشرى على فرض سيادته على الطبيعة.

و قد كان "بيكون" بهذا القول يعبر عما كان يتردد فى خواطر الناس إذ نهضت عدة عوامل تدل الإنسان على سيادته على الطبيعة ممكنة ميسورة منها اكتشاف القارة الجديدة و اختراع البوصلة و البارود و فن الطباعة و ذلك مع كشف علم المناظير المكبرة خبايا السماء و ألغازها و بدا كل شئ يسلم زمامه للعقل الإنسانى، و لا

---

[1] ص ٢٦-٢٧: المرجع السابق.

بد لإنسان من أن يتخذ من العلم رائداً يهديه سواء السبيل في تجاوبه في أنحاء الطبيعة.

و بهذه النزعة العلمية تفوق "بيكون" على الفلسفة المدرسية التي لا تؤدي إلى شئ و لكن الفلسفة كان يتهددها خطر على يديه و هو أن تزيح عن كاهلها خدمة الأغراض الدينية لكي تزيح تحت عبء آخر هو خدمة الأغراض العملية.

و الواقع أن ثمار المعرفة لا يتضح إلا حيث تكون المعرفة وحدها هي العرض المنشود.

هذا و قد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن "بيكون" وصل من الشهرة أسمى درجاتها كما أجمعوا على أنه لا يدانيه إلا "أرسطو" في شمول النظر و اتساع الفكر حتى وسع العالم كله و حتى اتخذ من الكون كله ميداناً لدراسته

و لم يكن يطمع "بيكون" إلا فى أمنية واحدة هى أن يســود الإنسان الطبيعة و هو فى ذلك يقول: (إن الناس من حيث مطامعهم ثلاثة رجال: رجل يطمع فى أن يبسط ســلطانه على أمته و هو أوضح الثلاثة جميعاً، و آخر يطمع علــى أن ينشر نفوذ بلاده على أمة أخرى و هــو أســمى مــن الأول و أنبل، و ثالث يطمع فى أن يجعل الجبس البشـرى سيد الكون و هو أسرف من سابقيه و أنبل). و لا شك أن "فرنسيس بيكون" كان من هذا الضرب الأخير[1].

---

[1] ص ٦٠-٦١: قصة الفلسفة الحديثة، جـ١: أحمد أمين و آخر.

الفصل الثالث

رينيه ديكارت

الفصل الثانى

رائد الفلسفة الحديثة

رينيه ديكارت

أفاقت أوروبا من خدر الكهنوت الذى سرى فى أوصالـــها زمناً طويلاً على صدى خطوات العلم و هو يلتمس لنفســه بصيص نور فى الظلام.

و لكن هذا العلم بما أسسه من مناهج جديدة تنشد أســـمى الغايات، صدم الناس فيما كانوا يسلمون به مـــن مبـــادئ و ما يجمعون عليه من مشهور الـــرأى أو مـــن مـــأثور العقيدة.

و بالرغم من مناصرة الدولة للكنيسة على مقاومة هذا التيار الدافق و مناهضة كل فكرة تناوئ ما عليه العرف السائد أو تعارض التقليد المرعى فإن خطوات هذا العلم واصلت سيرتها المباركة و سيرها الواثق فى اضطبار عظيم.

و قد أخفقت الكنيسة فى الحفاظ على تركتها القديمة من المبادئ و الآراء و اجتاحت أوروبا موجة من الشك عاتية زلزلت عقائد الدين و قيم الحياة و معتقدات الناس.

و لقد بلغ الشك من القوة و العنف إلى حد أن ظهر من الفلاسفة من يتخذ من الشك وسيلة و عليه فيرتكز إليه فى جحد بدهيات العقل و إنكار حقائق الأشياء.

و لئن كانت هذه المرحلة من الشك تذكرنا بنزعة السوفسطائيين فى عهد الإغريق، فقد واكبت مطالع القرون

السابع عشر الميلادى بدايات الفيلسوف الـــذى اصطنـــع الشك منهجاً ليقطع الشك بالشك و ينتهى من شـــكه إلـــى اليقين فيذكر الأذهان بذكرى شـــيخ الفلاســفة "ســقراط" و طريقته الفذة فى التهكم و التوليد للقضــاء علـــى شـــك السوفسطائيين.

و "سقراط" هذه المرة هو الفيلســوف الفرنســى الشــهير "رينيه ديكارت" الذى أطلق عليـــه بحـــق "أبـــو الفلســـفة الحديثة"[١] و زعيم نهضة عقلية و قـــائد حركـــة فكريـــة و حامل راية التجديد و الابتكار فى دائرة البحث الفلســفى أثناء القرن السابع عشر فهو الذى أقام أركـــان الفلســفة الحديثة و شاد بنيانها و وضع خطتـــها و أبـــان منهجـــها و فصل المقال فى فروعها و أوصلها.

---

[١] ص ٤٣-٤٤: د/رفقى زهير، أعلام الفلسفة الحديثة.

و لقد كان "ديكارت" فى مقدمة من حرر الفلسفة من ربقة القيود اللفظية و المُناقشات المدرسية و خلوصها من سلطان الكنيسة و استبعاد "أرسطو طاليس"[1].

نشـــأة "ديكارت":

فى آخر يوم من شهر مارس عام ١٥٩٦ م شهدت قرية لاهاى إحدى القرى الرئيسية بمقاطعة تورين بفرنسا مولد "ديكارت" و يرجع نسبه إلى أسرة متواضعة من طية النبلاء و الأشراف الذين سموا عن طريق القضاء و التشريع، و من سوء حظ هذا الوليد أنه حرم من العطف و الحنان الأموى و هو أحوج ما يكون إليه، فقد توفيت أمه و لم يجاوز العام الأول من عمره بعد أن ورثت سعالاً و ضعفاً لازماه إلى ما يقرب من سن

[1] ص ١١٧-١١٨: إبراهيم مدكور، من تاريخ الفلسفة.

العشرين من عمره، و استمر فى ضعفه هذا تحت رعاية أبيه و أخته.

و لما بلغ الثامنة ألحق بمدرسة "لافيش" اليسوعية التى كانت من أهم مدارس أوروبا آنذاك و فى هذه المدرسة تثقف على أيدى نخبة من كبار المدرسين المعروفين فى ذلك العهد، الذين خصوه برعاية و عناية ممتازة و ذلك مراعاة لأجل حالته الصحية و تقديراً لمواهبه العقلية[1].

و لقد درس المواد التى لابد منها لتكوين رجال مثقفين فدرس اللغات القديمة و الأدب نثراً و نظماً و الجغرافيا و التاريخ و الفلك و الرياضيات و الطب و التشريح و الفلسفة و اللاهوت و نال درجة الليسانس فى الحقوق و الماجستير فى الآداب و لم يجاوز العشرين بيد لم يكن يبلغها حتى بدا له أن كل هذه الدراسات السابقة قليلة

[1] ص ١١٨ من المرجع السابق.

الجدوى عديمة المنفعة واهية الأساس، فأراد أن يكتشـــف علماً جديداً بنفسهً و يهتدى إليه فى سفر الكـــون العظيـــم المملوء بالآيات، لذلك أخذ يجوب أنحاء الأرض و يـــتردد على قصور الملوك و الأمراء و ينخرط فـــى الجيـــوش و يخوض غمار المعارك و يعاشر الناس على اختـــلاف أمزجتهم و طبقاتهم ليتزود من التجارب النافعة و يمـــيز الصواب من الخطأ و ينفذ إلى صميـــم الحقيقـــة ببحثـــه الشخصى، و كان له بالسفر ولوع كبير حتى أنه قضـــى شطراً كبيراً من حياته راحلاً متنقلاً و لم يدع بقعـــة مـــن بقار أوروبا إلا زارها، و الأسفار وسيلة نافعة من وســائل التكوين و الثقافة و مدرسة مملوءة بـــالجديد و الطريـــف و يظهر أن غرام "ديكارت" بالحقائق و الوصـــول إليـــها دفعه لأن يكشفها فى خدرها و يقف عليها فى مقارها ثـــم أخيراً ينشد الهدوء و يلجأ إلـــى هولنـــدا مصـــدر وحيـــه و إلهامه و استطاع أن يدون معظم مؤلفاته ثم ذهب إلـــى

ملكة السويد "كرستينا" و هنا لو فاضت روحه حيـــث لـــم يستطيع أن يتحمل جوها القاسى و بردها الشديد.

شخصية "ديكارت"

إن أظهر نزعة فى خلق "ديكارت" هـــى حبــه للراحـــة و السكينة و ولعه الشديد بالعزلة و الهدوء، و لقــد تــرك فرنسا مسقط رأسه و ذهب إلى هولندا لينشد فيها الـــهدوء و الأمان و لأن فرنسا كانت لا تسمح لمفكر أن يخــرج أو يخالف الفلسفة الرسمية التى كان معلمها الأول الفيلســوف اليونانى الشهير "أرسطو"[1] كما كانت هولندا كذلـــك فـــى منأى عن محاكم روما و تعذيبها للمفكرين الأحرار، و لقد اتصف بالتمسك بدينه و حبه لوطنه و كان جم التواضــــع و من أقواله فى هذا: أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمــــل من نفوس الغير، بل كثيراً ما تمنيت أن يكون لـــى مـــن

---

[1] ص ٧٢: مقال عن المنهج-"رينيه ديكارت" ترجمة محمود الخضـــيرى، الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ م.

سرعى الفكر أو من وضوح الخيال و تميزه أو من سـعة الذاكرة و حضورها مثل مـا لبعـض النـاس، و كـان "ديكارت" حريصاً على أن يعيش آمناً مطمئناً و لذا فقـد حرص على أن لا يتورط فى خلافات أو مجـادلات مـع السلطات الكنيسية و من أجل هذا لم ينشـر كتابـه عـن "العالم" الذى أخذ فيه بالنظام الملكى الكوفيللـى، و ذلـك عندما سمع بمحاكمة "جـاليليو" و ذلـك لقولـه بـدوران الأرض و قد كان "ديكارت" يرى ذلك و يثبته فى كتابـه المذكور.

و لقد ألزم "ديكارت" نفسه بقانون فى السلوك و الأخـلاق يعينه على دراسات الفلسفة فى جو بعيد عن المضايقـات المحتملة و يتمثل هذا القانون فى المبادئ الثلاثة التالية:

١-أن أطيع قوانين أمتى و تقاليدها و أحافظ علـى الديانة التى نشأت عليها.

٢-أن أكون راسخ القدم ثابت العزم فى أفكـــارى على قدر ما أستطيع.

٣-أن أجتهد دائماً فـــى أن أغـــالب نفســـى لا أن أغالب الأقدار، و أن أعبر من رغباتى و مطـــالب الشخصية و ليس من نظام الكون[١].

مؤلفات "ديكارت"

يقول برتراند رسل عن مؤلفات رائـــد الفلســـفة الحديثـــة "ديكارت" أن فيها عذوبة لا نجدها عند أى فيلسوف ســـابق مثل "أفلاطون" و كل الفلاسفة الذين جاءوا بينهما كـــانوا معلمين مع التفوق الاحترافى الذى ينتمى إلى تلك المهنـــة، و "ديكارت" يكتب لا كمعلم و لكن لمكتشف متلهف لإذاعة ما وجده، و أسلوبه سهل لا تحذلق فيه موجه إلى أذكيـــاء الناس فى الحياة لا إلى تلاميذ و هو فوق ذلـــك أســـلوب

---

[١] "ديكارت": مقال عن المنهج ص ١٣٨ و ص ٨٤-٨٥: دراسات فى الفلسفة الحديثة، د/محمود زقزوق.

ممتاز فذ، و من حسن حظ الفلسفة الحديثة أن يكون رائدها مثل هذا الحس الأدبى الرائع[1] و لقد كان "ديكارت" فيلسوفاً رياضياً و رجل علم و كانت اسهاماته فى هذه الميادين ذات أهمية بالغة، و لعل من أعظم و من أشهر ما كتبه أبو الفلسفة الحديثة ما يلى:

أولاً: مقال عن المنهج

لقد رسم "ديكارت" فى هذا المقال الطريق الواضح إلى استخلاص معارف يوثق بها و يطمئن إلى صحتها و يركن إلى حقيقتها، و قد نشر مع هذا المقال ثلاث رسائل تعد بمثابة التطبيقات العلمية لمنهجه، أحدها فى البصريات و الثانية فى الآثار العلوية و الثالثة فى الهندسة.

---

[1] راجع ص ٨٩: دراسات فى الفلسفة الحديثة، د/محمود زقزوق.

و لقد اشتهرت آنذاك هذه الرسائل دون المنهج الـــذى اعتبره المثقفون مجرد مقدمة لها، و لكن الأنظار مـــا لبثت أن تحولت إلى المنهج إلـــى حـــد أن الجامعـــة المصرية و بعض الجامعات الأوروبية قـــد احتفلـــت بمناسبة مرور ثلاثة قرون على المنـــهج الديكـــارتى و ذلك سنة ١٩٣٧ م و تناسبت الرسائل تناسباً تامـــاً و يذكرنا ذلك بمقدمة "ابن خلدون" التى طغت شهرتها كتابه نفسه بل اقترنت باسم صاحبها حتى كأنه لم يكن شيئاً سواها، و فى هذا الكتاب "المقال" يوضـــح لنـــا "ديكارت" قواعده الأربع المشهورة التى اعتقـــد أنـــها تغنى عن هذا العدد الكبير من المبادئ التـــى يتـــألف منها المنطق و هذه القواد هى[١]:

١-ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق ما لم أعرف يقينـــاً أنه كذلك فى وضوح و تميز بحيـــث لا يكـــون فيـــه مجال للشك بحال من الأحوال، (قاعدة اليقين).

---

[١] أنظر ص ١٣٠ و ما بعده: مقال عن المنهج.

٢-أن أقسم المشكلة المطروحة للبحث إلى أجزاء على قدر المستطاع و على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه، و هذا ما يطلق عليه "ديكارت" (قاعدة التحليل).

٣-أن أقود أفكارى بنظام بادئاً بأبسط الأمور و أسهلها معرفة و منتهياً بأكثرها تركيباً، و هذا ما يطلق عليه "ديكارت" (قاعدة التأليف و التركيب).

٤-أن أعمل فى كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة و المراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من أننى لم أغفل شيئاً و تسمى هذه القاعدة (قاعدة الاستقراء).

و من المعروف أن هناك جزءاً من المقال جدير بأن يسمى "اعترافات ديكارت" إذ يشرح فى تاريخ حياته الروحية و ما مر بها من أزمات و ما أشبهه فى هذا بـ "روسو" فى اعترافاته، أو الغزالى فى كتابه العظيم "المنقذ من الضلال".

و أما الجزء الآخر فيوضح فيه قواعد منهجه الأربع المشهورة التى تحدثنا عنها سابقاً، ثم يتحدث "ديكارت" عن الأخلاق حديث المستسلم للعرف و التقاليد للتأثر ببعض الأفكار الرواقية، و يعرض لتلك المشكلة الميتافيزيقية الهامة مشكلة "أنا أفكر فأنا موجود" و يشير أخيراً إلى بعض التجارب العملية[1].

ثانياً: تأملات فى الفلسفة الأولى

نشر هذا الكتاب باللغة اللاتينية سنة ١٦٤١ م ثم ترجمع بعد ذلك سريعاً إلى الفرنسية و اطلع مؤلفه على جزء من ترجمته و لقد عنى "ديكارت" فى هذا الكتاب عناية خاصة بالبرهنة على وجود الله و وجود النفس تقديراً لما فى هذه الأبحاث من دقة و رغبة فى

---

[1] ص ١٢٢ دروس فى الفلسفة.

أن يطمئن على مستقبلها و لذلك فإنه لم ينشـــــرها إلا بعد أن يعرضَها على كثير من المفكريــــن و رجـــال الدين فى هولنـــدا و فرنســـا، و لقـــد وجـــهت إليـــه اعتراضات عدة لم ير بداً من أن يرد عليها و يلحقـــها بمؤلفه، و هذه ثقة بالنفس عظيمة[1]، و كانت آمالـــه أن ينتشر هذا الكتاب و أن تكون دائرة قراءتـــه أوســـع و أشمل.

و لعل هذا الكتاب من أهم كتبه جميعاً حيث يشـــــتمل هذا الكتاب على التأملات الستة التالية:

<u>التأمـــل الأول</u>: فى الأشياء التى يمكن أن توضع موضـــع الشك.

<u>التأمـــل الثانـى</u>: فى طبيعة النفس الإنسانية و أن معرفتـــها أيسر من معرفة الجسم.

<u>التأمـــل الثالث</u>: فى وجود الله.

---

[1] ص ١٢٢: المرجع السابق.

التأمـــل الرابع: فى الصواب و الخطأ.

التأمـــل الخامس: فى ماهية الأشياء المادية و العود إلـــى الله و وجوده.

التأمـــل السادس: فى وجود الأشياء المادية و فى التميـيز الحقيقى بين نفس الإنسان و بدنه.

ثالثاً: مبادئ الفلسفة

الذى ظهر أولاً باللغة اللاتينية ثم ترجم بعد ذلك إلـــى اللغة الفرنسية و قد ضمنه "ديكارت" الأفكار الهامـــة التى أودعها من قبل "كتاب العالم" و أفاض الحديـــث فى نظرياته الطبيعية و يشتمل على أربعة أجزاء:

الأول: فى مبادئ المعرفة.

الثانى: فى مبادئ الأشياء.

الثالث: فى العالم المنظور.

الرابع: فى الأرض.

رابعاً: لهداية العقل

و قد نشرَ هذا الكتاب فى عام ١٧٠١ م بعد وفاة "ديكارت" بنصف قرن، و قد نشر معه أيضاً مؤلف صغير لم يكتمل بعنوان "بحث الحقيقة عن طريق النور الفطرى" و يعتقد أن "ديكارت" قد ألفه بعد التأملات و مبادئ الفلسفة.

خامساً: رسالة فى انفعالات النفس

و هذا الكتاب هو آخر الكتب التى قام "ديكارت" بتأليفها أثناء حياته و قد تعرض "ديكارت" فى هذا الكتاب للمشكلة الأخلاقية التى سبق له أن تصدى لها فى "مقالة فى المنهج" و يبدو أن هذه المشكلة قد شغلته كثيراً فى السنوات الأخيرة من حياته و خاصة فى الرسائل المتبادلة بينه و بين تلميذته المخلصة الأميرة "اليصابات" و التى نشرت بعد موته فى ثلاثة مجلدات.

و لا شك فى أن هذه المؤلفـــات أحدثـــت ثـــورة عظيمة فى حينها و رسمت للباحثين خطة الفلســفة الجديدة المنشودة[1].

---

[1] انظر ص ١٢٢: دروس فى تـــاريخ الفلســـفة، و ص ٣٥: مبـــادئ الفلسفة لديكارت، ترجمة عثمان أمين-مكتبة النهضة المصريــــة عـــام ١٩٦٠ م.

فلسفة ديكارت

لو شاء "ديكارت" أن يكون فيلسوفاً لما كلفه ذلــك كبـير عناء و لكنه أبى إلا ان يحمل راية التجديد فـي الدائـرة الفلسفية و يثور على التقاليد القديمة و يستحق فى جـدارة لقب "أبو الفلسفة الحديثة" و لن يحرز هـذا اللقـب إلا إذا استطاع أن يحل محل ذلك الأب الذى أذعن له الفلاسـفة القدامى و المعاصرون "أرسطو طاليس" الـذى اسـتولى على العقول بسلطانه و ملكها بمصنفاته، فثورتـه موجـه إذن ضد منطق المعلم الأول و آرائه الطبيعيـة التـى لا تلائم العلم الحديث، و نظريـات الميتافيزيقيـة التـى لا ترضى العقول و لا تتفق مع أصول الدين.

هذا و الفلسفة من خلال وجهة "ديكارت" هى التوصل إلـى معرفة كاملة لكـل مـا يسـتطيع الإنسـان أن يعرفـه. و المعرفة المقصودة هنا لابد أن تكون مستنبطة من العلل

الأولى، و من أجل ذلك يتحتم للحصول على هذه المعرفة البدء أولاً بالفحص عن تلك العلة الأولى أو المبادئ التى يشترط فيها شرطان:

١-أن تكون واضحة وضوحاً تاماً بحيث لا يمكن الشك فيها بحال من الأحوال.

٢-أن يعتمد عليها معرفة الأشياء الأخرى بحيث يمكن معرفتها بدون هذه الأشياء فى حين لا تعرف هذه الأشياء بدونها[١].

و تشكل الفلسفة بفروعها المختلفة وحدة واحدة أو كلاً متكاملاً يقوم على قاعدة أساسية هى "الميتافيزيقا" التى نقد الأساس المتين لكل العلوم و فى هذا الصدد يقول "ديكارت": فالفلسفة بأسرها أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقا و جذعها الفيزيقا، و الفروع التى تخرج من هذا الجذع هى تحل العلوم الأخرى التى تنتهى إلى ثلاثة

[١] مبادئ الفلسفة لديكارت ص ٤٦.

علوم رئيسية هى الطب و الميكانيكا و الأخلاق و أعنى الأخلاق الأرفع و الأكمل التى لما كانت تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى و قد بلغت المرتبة الأخيرة من مراتب الحكمة[1].

فالميتافيزيقا إذن هى التى تزودنا بالمبادئ الأولى للأشياء إذ أنها تحتوى على مبادئ المعرفة، و من بينها-كما يقول "ديكارت"-تفسير أهم صفات الله، و لا مادية النفوس و جميع المعانى الواضحة البسيطة المودعة فينا، أما الفيزيقا فإنها-كما يقول "ديكارت" أيضا-يبحث فيها على العموم بعد أن يكون المرء قد وجد المبادئ الحقة للأشياء المادية على ماهية الكون كله، و بوجه خاص عن طبيعة هذه الأرض و طبيعة هذه الأجسام التى توجه حولها مثل الهواء و الماء و النار و المغناطيس و المعادن الأخرى،

---

[1] ديكارت ص ٦٩: مبادئ الفلسفة، و ص ٩٣: دراسات فى الفلسفة الحديثة، د/محمود زقزوق.

و بعد ذلك يبحث المرء عن طبيعة كل من النبات و الحيوان و عن طبيعة الإنسان بوجه خاص حتى يستطيع بعد ذلك أن يجد العلوم الأخرى النافعة.

و ليس من هدفنا أن نتتبع جميع الأفكار الذى اشتملت عليها فلسفة هذا المفكر العظيم، و إنما فقط سوف نتحدث عن بعض معالم هذه الفلسفة الرائدة.

الشك الديكارتى

اجتاحت أوروبا قبل "ديكارت" موجة خطيرة مـــن الشـــك العارم أوشكت أن تعصف فى قسوة و عنـــف بمســـلمات الناس و حقائق الحياة و تذكرنا هذه الموجة العاتيـــة فـــى بعض أدوارها بما حدث على أيدى السوفســـطائيين مـــن زعزعة الحقائق و زلزلت ثقة الناس بها و اطمئنانهم إليها ثم كان "ديكارت" بشكه المنهجى هو "ســـقراط" العصـــر الحديث الذى أعاد إلى الحقائق ما افتقدتـــه مـــن تســـليم و قبول، و أعاد إلى العلوم ما افتقدته من سكينة و يقين.

و قد افترض "ديكارت" فى أول خطواته أن كل ما تمتلـــئ به نفوس الناس من خواطر و أفكار و تصورات إن هـــو إلا خيالات و أوهام لا حظ لها من الحقيقة، و ماذا يمنـــع أن يكون شيطان خبيث يوحـــى إلـــى النـــاس بكـــل مـــا يتصورون و أن تكون ظواهر الكون و مظاهر الوجـــود

مجرد ضلال كاذبة و أن تكون الحياة كلها حلماً طويلاً و أكذوبة كبيرة لا تستحق ما منحها الناس من ثقة و تسليم.

من هذا المنطلق شك "ديكارت" فى كل شئ ثم أخذ يثبت الحقائق بمنهج منطقى لا يتأثر بعرف أو فلسفة أو دين.

<u>إثبات وجود الذات</u>

يقول "ديكارت": إننا نلاحظ كيف يختلف الناس فى أفكارهم و آرائهم، و كيف تخدعنا الحواس فى كثير من الأحيان، فيبعث الشئ الواحد شتى الصور فى الظروف المختلفة، مما يتعذر معه معرفة أى هذه الصور الذهنية صحيح مطابق للواقع و أيها خطأ و باطل، فأذا كان العقل البشرى يحكم بحكم تكوينه معرضاً للخطأ و إذا كانت الحواس بطبيعة تركيبها خادعة لا تؤتمن فيما إلينا من علم فليس لنا بد من الشك فى أحكام العقل و فى الآثار الحسية

جميعاً لا تستثنى من هذه أو تلك شيئاً حتى ما يبدو منـــــها بديهياً لا يحتمل الريب.

فنحن نعلم فيما نعلم أن هناك عالماً مليئاً بأنواع المادة فثمة سماء و ماء و أشجار و أحجار و صنوف من الحيـــــوان و النبات و لكن أليست هى الحواس التى أنبأتنـــا بوجـــود هذه الطبيعة بكل ما فيها ؟ فلنشك فـــى وجودهـــا إذن لأن الحواس غاشة خادعة. و نحن نعلم فيما نعلم أن ثمة ألـــها يدير الكون و يدبره، و قد عرفنا بوجود الله بالعقل و لكـــن العقل كثيراً ما يؤدى بنا إلى الخطأ و الزلل أذن فلنشك فى وجود الله، و ما دمنا قد شككنا فى وجود الله و شككنا فـــى وجود الطبيعة فقد انهدم علمنا بأجمعه و انمحى لأنكح لـــو حللت معلوماتك كلها لوجدتها مســـــتمدة مـــن المصـــادر و تدور معها، و لكنك مهما شككت و قضيت علـــى كـــل شئ مما أعلم فستتبقى لى حقيقة واحدة تبقى أمـــام الشـــك الجارى و ستظل ثابتة لا تميل أمام عاصفة الإنكار التـــى

اكتسحت كل شئ، بل أنها ستزداد يقيناً كلها أمعنـــت فـــى الشك و الإنكار و هذه الحقيقة هى أنها هناك دائماً ذاتـــاً تشك، فأن من الشك نفسه تتولد حقيقة لا سبيل إلى الطعـن فى ثبوتها و يقينها هى وجود الشخص الذى يشـــك، فـــلا تصور ما شئت أننى مخدوع فى وجود الأشياء الخارجيـــة و لأرفض ما شئت فكرة وجود الله و لكن مضطـــر إلـــى التسليم بوجود نفسى لأننى لكى أخطئ فى هذا و أنخـــدع فى ذاك يجب أولاً أن أكون موجوداً. نعـــم إنـــى مـــهما ألححت فى الشك فلن أشك فى أنى أشك، و لما كان الشـك ضرباً من ضروب التفكير أذن فلست أستطيع الشك فـــى انى أفكر و بديهى أننى لم أكن موجوداً لمـــا شـــككت أو فكرت، "فما دمت أفكر فأنـــا موجـــود" و هكـــذا وضـــع "ديكارت" هذه القاعدة "أنا أفكر فأنا أذن موجود "و اتخذهـــا أساساً وضع عليه فلسفته كلها فمن وجود نفسه أثبت وجود الله و من وجود الله أثبت وجود العالم الخارجى .و ممـــا تجب ملاحظة أن "ديكارت" حين أثبت وجوده، من تفكـيره

لم يثبت إلا ذاته الفكرة فحسب و لم يثبت وجود نفسه و لا ما يتصل بالجسمَ، لأنه استنتج من شكه وجود ذاته الشـاكة أى المفكرة و فى ذلك قال "ديكارت" و هو يرد على أحـد معارضيه "سانشيه" الذى يقول "كلما فكرت اذدرت شـكاً " فيرد عليه "ديكارت" قائلاً " بل كلما شككت اذدرت تفكـيراً فازدت يقيناً بوجودى".

هكذا بدأ "ديكارت" بالشك الهادم ثم انـتزع مـن غمـار الأنقاض التى فوضتها معاول شكه يقيناً، اذ أثبت أن ذاتـه المفكرة موجودة و لا ريب فى وجودها، ثم قرر بعد ذلـك أن كل قضيه تبلع من الوضوح و التحديد ما بلغته قضيـه "أنا موجود" لا يجوز أن نرتاب فى صدقها و يقينها، فمثلاً لا ينبغى أن نشك فى هذه القضية الآتيـة "إن الشـىء لا يخرج من لا شئ" لأنها بديهية تفرض نفسها على العقـل فرضاً، فهى لا تقل صحة و يقيناً عن وجود العقل نفسـه، فإذا سلمنا بأن الشىء لا يخرج من لا شئ كان لزاماً علينا

أن نسلم بان النتيجة لا يمكن أن تجئ أكبر مـــن مقدمتـــها أعنى أن السبب يجب أن يكون أصغر من سببه أو علـــى الأكثر مساوياً له لأن كل زيادة فى السبب معناهـــا أنـــها نشأت من لا شئ و هو منأى للقضية التى سلمنا بها[١].

و هكذا وصل "ديكارت" من خلال شكه البناء إلى حقـــائق عظيمة فقد أفترض فى أول خطواته أن كل ما تمتلئ بـــه نفوس الناس من خواطر و أفكار و تصورات ما هـــى إلا أوهام و خيالات لاحظ لها من الحقيقة و لا أساس لها مـــن الصحة، و ماذا يمنع أن يكون شيطان خبيث يوحى إلـــى الناس بكل هذه التصورات دون أن يكون لها حقيقـــة و أن يكون الناس قد سلموا بها ووثقوا فيها و هى بعيـــدة كـــل البعد عن الواقع، و هنا يشك "ديكارت" فى كل شئ ثم أخذ يثبت الحقائق بمنهج لا يتأثر بعـــادات أو تقـــاليد أو آراء سابقة الخ...حيث أدرك أن الإنسان جســـم و نفـــس و أن

[١] ص ٦٧-٦٩ قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين.

الفرق بينهما هائل و أنه ينبغى إثبات كل منها على حـــدة و قد بدأ بإثباتَ النفس الإنسانية إذ هى الوجــود الحقيقـــى للإنسان أعنى التفكير أما الجسم فقد أعتبره "ديكارت" مـــن العالم الخارجى و يقرر "ديكارت" أنه إذ صح الشك فـــى كل الحقائق فأن حقيقة واحدة لا يمكن أن يتطـــرق أليـــها الشك و هذه الحقيقة هى أنه يشك و بما أن الشك عمليـــة فكرية فهو أذن يفكر من خلال شـــكه و التفكـــير صفـــة مجردة تحتاج إلى موصوف تقوم به و هذا الموصوف هو النفس الإنسانية التى تمارس عملية الشك أو التفكير و قـــد لخص طريقته فى إثبات النفس بقوله (أنا أفكر أذن فأنـــا موجود)[1].

[1] ص ٥٠-٥١.د/ رفقى زهير : أعلام الفلسفة الحديثة.

وجـــــود اللــــه

لقد سلمنا فيما سبق أن الشئ لا يخرج من العـــدم، و أن النتيجة لا يمكن أن تكون أعم مـــن ســببها، و لكنــك إذا استعرضت فكرك أو راجعت أفكارك صادفت بينها فكــرة ممتازة هى فكرة الكائن اللانهائى_أعنـــى أن فـــى ذهنــك صورة عن كائن لا نهاية له و لا حدود فمن أين جـــاءتك هذه الصورة ؟

يستحيل أن تكون قد نبعت من نفسك لأنها أوســـع منــك فأنت على نقيضها كائن نهائى محدود، و بديـــهى- كمـــا سبق القول-ألا تجئ الصورة أشمل من أصلها و لا يمكــن لسبب أكبر من سببه، لأنه محال أن يخرج الشئ مـــن لا شئ و أذن فلا يمكن أن ينشأ كائن لا نهائى مطلـــق مـــن كائن نهائى محدود.

أذن فمن أين جاءتك هذه الفكرة بعد أن أيقنت أنها لم يتفرع عن فطرتك؟

لا تحسبك متردداً فى أن نذهب مع "ديكارت" فيما ذهب إلية من أن هذه الفكرة اللاّنهائية الكاملة لا يمكن أن تنبعث من الطبيعة البشرية الناقصة، بل لابد لها من أصل يوازيها كما لا و عضة بضرورة التكافؤ بين العلة و المعلول، و من هنا كان حتماً علينا أن نسلم بوجود الله حامل لكل صفات الكمال هو الذى خلق فى الإنسان هذه الفكرة و ألهمه إياها و أذن فالله موجود[1].

يقول "ديكارت" عن هذه الفكرة التى أوجدها الله فى فطرتنا:- و الحق أنه لا ينبغى لنا أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فى هذه الفكرة لكى تكون علاقة الصانع مطبوعة على مصنعته، و ليس من الضرورى،

---

[1] قصة الفلسفة الحديثة ص ٧٠.

كذلك أن تكون هذه العلاقة شيئاً مختلفاً عن هذه الصنعة نفسها و لكن مجرد اعتبار أن الله خلقنى يرجع عندى الاعتقاد بأنه قد جعلنى من بعض الوجوه على صورته أو على مثاله[1] فإذا تحقق للإنسان معرفة الذات بصورة تامة و أدرك أن أخص خصائص الإنسان يتمثل فى الدفاع نحو الكمال فإنه حينئذ يعرف حقيقتين فى وقت واحد:

الحقيقة الأولى:

أن هذا الموجود الذى يعتمد عليه يملك بالفعل و إلى غير نهاية-كل كمال.

الحقيقة الثانية:

تتمثل فى أنه شئ ناقص (أى الإنسان) و معتمد على غيره.

---

[1] التأملات ص ١٥٥، و أنظر ص ١١٦ من دراسات فى الفلسفة الحديثة، د/زقزوق.

و يقيم "ديكارت" على وجود الله برهاناً ثابتاً فيتساءل من ذا أوجدني؟

أني لم أخلق نفسي بنفسي و ألا لوهبتني كل صنوف الكمال التي تنقصني الآن، كذلك لم يخلقني خالق ناقص لأنه لو كان كذلك لقامت أمامنا المشكلة بعينها، و من ذا أوجد ذلك الخالق الناقص؟

انه لم يوجد نفسه و إلا لخلع على نفسه ضروب الكمال فلم يعد ألا يكون خالقي إلها كامل الصفات هذا و أن استمرار وجودي ليحتاج إلى تعلمين أن لا يكفي أن يخلقني الله أول مرة و كفى بل أني بحاجة إلى وجودة ليخلقني في كل لحظة خلقاً جديداً فالزمان يتألف من جزئيات زمنية لا نهائية متعاقبة و لا تعتمد البرهنة الزمنية في وجودها على البرهنة التي سبقتها بأي حال من الأحوال و على ذلك فكوني كنت موجوداً منذ لحظة لا

يجوز أن يكون سبباً فى وجودى الآن و أذن فيستحيل أن يستمر وجودى إلا إذا كانت هناك قوة تخلفنى فى كل لحظة خلقاً جديداً و معنى ذلك أن مجرد وجودى دليل على وجود الله و أن استمرار وجودى دليل آخر على وجوده:

و لرب معترض يقول:
إن الله كذلك يستمر وجودة من لحظة زمنية إلى لحظة أخرى فكيف استطاع أن يحتفظ بوجوده أكثر مما يستطيع البشر؟

و جواب ذلك: أن الله كامل كما لا مطلقاً و الكمال يقتضى دوام الوجود و لو لم يكن كذلك لأمكن للعقل أن يتصور كائناً اكمل منه و فى هذا الصدد يقول "ديكارت":
"و أنى أتصور هذه المشابهة المتضمنة لفكرة الله يعين الملكة التى أتصور بها نفس أى أنى حين أجعل نفسى

موضوع تفكيرى لا أتبين فقط أنى شئ ناقص غير تام و معتمد على غيرى و دائم النزوع و الاشتياق إلى شئ أحسن وأعظم منى ،بل أعرف أيضا فى الوقت نفسه أن الذى أعتمد عليه يملك فى ذاته كل هذه الأشياء العظيمة التى أشتاق إليها والتى أجد فى نفس أفكارا عنها وأنه يملكها لا على نحو معين أو بالقوة فحسب بل يتمتع بها فى الواقع و بالفعل وإلى غير نهاية ومن ثم اعرف أنه الله[1] و قد جاءت هذه البراهين التى أقامها "ديكارت" على وجود الله فى عصر صارفيه الشك و كثرت أعاصيره حتى تزعزعت العقيدة الدينية و تزلزلت حقائق كثيرة فكانت هذه الأدلة القيمة خير باعث على الإيمان.

[1] راجع التأملات ص ١٥٥/١٥٦.

وجود العالم الخارجي:

انتهينا الآن إلى حقيقتين لا سبيل إلى إنكارهما:

١-وجود النفس.

٢-وجود الله.

وكل واحدة منها تقودنا إلى إثبات وجود العالم الخارجي، فأما وجود النفس فيقتضي كما أشرنا سابقا التفرقة بينها و بين الجسم، فإذا كانت خاصتها ا لأولى هي التفكير فلن ميزته الرئيسية هي الامتداد الذي يجب أن ترد إليه الصفات الظاهرية الأحرى وبهذا تتحقق الثنائية التي وصل بها "ديكارت" إلى القمة.

فالعالم عنده روح ومادة وعقل وجسم ولا سبيل للخلط بين هذين بحال، وقد برهنا على وجود القوة الفكرية برهبة عقلية أما الأشياء الخارجية فلم تصل إلينا لا عن طريق الحواس المملوء بالأوهام و الأباطيل.

غير أنه بعد أن ثبت لدينا وجود الله ينقطع شكنا فى هـذه الأشياء الخارجية، كذلك، فـان فينا استعداد للتسليم بوجودها و أفكارنا الغامضة تستلزمها، وإحسان الله وصدقه يحول دون أن يهبنا عقلا أو استعدادا يضللنا. ويظهر إذن أن "ديكارت" بعد أن بدأ بتكذيب العقل فى كل ما يجيء به انتهى بتصديقه فى كل مكان ما يصل إليه.

هذا و مهما يكن من أمر منهجه الشكلى ونتائجه وما فيه من مآخذ فلا جدال فى أن أبحاثه الفيزيقية أحدثت ثورة فى الدوائر الفلسفية و بدت غريبة كل الغربة فى أعين معاصريه فهو يعتد بالعقل اعتدادا عظيما ويحكمه فى كل شئ حتى فيما رأته العين أو سمعته الأذن و بدل أن يصف من الحس إليه ينزل منه إلى عالم المحسوس. فكان بحق زعيم المذهب العقلى فى التاريخ الحديث وواضع قواعده، وأنصار هذا المذهب فى القرنين الثامن عشر و التاسع عشر مدينون له إلى حد كبير.

و لم يكتفى بأن يتخذ من العقل أساسا للمعرفة العامة، بل أراد أن يدعم به الحقائق العلمية الخاصة و بهذا أضحت الميتافيزيقا عنده عماد المنطق و الطبيعة، و الواقع أن الميتافيزيقا التى انتهى إليها تخالف الميتافيزيقا القديمة: فهى علم الفكر و العقل، فى حين أن تلك الحدس و الظن و نتيجة البحث و الشك فى حين أن تلك قائمة على التسليم و الإذعان.

وكأن "ديكارت" يأبى إلا أن يكون أبا الفلسفة الجديدة فى كل مظاهرها.

فبدعامة الطبيعة على الميتافيزيقا برسم خطة فلسفة العلوم التى لن تتزعزع و تكتل إ لا فى أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين[1].

---

[1] ص١٣٣-١٣٤ دروس فى تاريخ الفلسفة -إبراهيم مدكور.

الأخلاق عند ديكارت

أراد "ديكارت" أن يقيم الأخلاق على أسس تكفل السعادة للإنسانية فقد وضع لها قواعد ثلاث:

الأولى: أن يطع الإنسان قوانين بلاده وأن يحترم عادتها و تقاليدها مع الثبات على الديانة التى نشأ عليها وأن يدبر شئون حياته تبعا لأكثر الآراء اعتدالا التى أجمع عليها ورضى بها أعقل الناس الذين يعيش بينهم.

الثانية: أن يتصف الصدق فى جميع أعماله و أقواله وأفعاله. و أن يتصف بالثبات على آرائه. ويتجنب الشك و التردد فى سياسته. مثله فى هؤلاء المسافرين الذين يضلون فى غابة ونجوا. أما إذا

ضربوا فيها هاهنا مرة. و هاهنا مرة أحرى أوقفـوا فيها ضعف أملهم فى النجاة و السلامة.

الثالثة:أن يجتهد فى مطالبة نفسه وأن يكبح شـهواته و أن يحد من رغباته وأن يسيطر العقل على العواطــف و فى هذا المجال يقول "ديكارت" أنه حتى أضعـف العقول يستطيع بالصبر أن يوقف إلــى السـيطرة على العواطف. كما نستطيع أن نـــروض أعنــف الكلاب. فإذا تم للعقل هذا انقلبت العواطــف إلــى وسيلة حسنة واردة فورية لبلـــوغ الغايـــة التـــى ننشدها. ألا وهى الخير لأن الخير الـــذى يدركـــه العقل أدراك معرفة إنما يقوى أثره فى نفوسنا لـــو مثلته لنا العواطف شيئا جميلا إذ لا يكفى أن تعلـــم الخير بعقلك بل يجب أن ترغب فيه عواطفك[1]

---

[1] المقال فى المنهج ص٩٩-١٠١ وقصة الفلسفة الحديثة ص٨٣.

إذن "ديكارت" يريد من الإنسان أن يعرف قواعد الأخــلاق و يطبقها عملياً للوصول إلى السعادة.

المعرفة و وسائلها

بين"ديكارت" فلسفته على المنهج الرياضى لأنه يقوم علـــى استنباط الحقائق العلمية عن طريق وضــــع المقدمـــات و استخلاص النتائج اليقينية الصادقة ثم قسم الأشياء المدركة أو المطلوب الوصول إلى معرفتها إلى قسمين:-

القسم الأول: الأشياء البسيطة: و البسيط هـــو الـــذى لا يقبل القسمة أو هو الشىء الذى لا يقبـل أن يتجزأ إلى أجزاء.

القسم الثانى: الأشياء المركبة: و هى الأشياء التى تقبــل القسمة أو التى تقبل أن تتجزأ إلى أجزاء.

فالأشياء البسيطة: تدرك بواسطة البداهة أو الحدس الفطرى الذى يولد الإنسان مزوداً به.

وعرفه الفلاسفة بأنه سرعة الانتقال من المعلوم إلى المجهول و أيضاً بالبداهة تدرك الروابط و العلاقات بين أجزاء الشيء المراد معرفته .

و الأشياء المركبة: تدرك و تعرف بواسطة القياس المنطقى يقول الدكتور / الخضيرى فى المقال و هو يرى - أى "ديكارت" - أنه ليس للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة و القياس[1].

مثل القياس الذى أثبت به وجود ذاته المفكرة فقال: أنا أشك إذن أنا موجود.

---

[1] مقال فى المنهج ص ٩٣ .

طبيعة الله

فلنفترض الآن من باب المحاجاة أنـــه قــد ثبــت أن الله موجود و ننتقل مع توخى الإيجاز إلى مسألة طبيعتــه . إن حجة "ديكارت" التى رأت إن الله لابد أن يكون قادراً علــى كل شئ و عالماً بكل شئ . . . الخ، قد اتخذت على وجــه التقريب صورة حجة وجوده التى أجملتـــها مـــن برهـــة وجيزة و كل ما حدث من اختلاف هـــو حلـــول مقدمـــة "القدرة على كل شئ كمال" و مقدمة "العلم بكل شئ كمال" و هكذا محل مقدمة "الوجود كمال" و لمـــا كـــانت هـــذه المقدمات مقدمات خلافية نسبياً لذا ستبدو حجج "ديكـــارت" سليمة بما فيه الكفاية و فى كلا الحالين، المقصـــود هـــو، القول إن الله لا يمكن أن يفتقـــر إلـــى هـــذه الصفـــات، و استمرار وصفه بالكائن الأسمى الكامل، كما هو وفقـــاً للتعريف . ولقد استعمل "ديكارت" فى الحجة ذاتها لبيـــان أن جميع هذه الكمالات يجب أن تتحد فى كائن واحد، و لا تتفرق بين عدد من الكائنات يكون لكل منها كمال واحد أو

قليل من الكمالات. فتبعاً لما أرتاه فأنه بغير هذه الوحـــدة الخاصة بجميع الكمالات، لن يكون أى كائن أسمى، و من ثم فأنه لن يكون ألها ألا إذا تبين أنه موجــود. فبغـير أن تتوافر لله جميع هذه الكمالات، فأنه لــن يكـون الكــائن الأسمى الكامل، متمشياً مع التعريف.

و أخيراً يحاجى "ديكارت" على نحو مماثل و يذكر أنه فى غير مقدور الله أن يكون مخادعاً مثل الشـيطان الخبيـث الذى تخيله و تتخذ الحجة الصورة الآتيـة فـى "التـأمل الثالث":

١-الله هو الكائن الكامل الأسمى.

٢-ليست للكائن الكامل الأسمى أيـة نقـائص أو أوجه خلل.

و من ثم:

٣-فليس لله أية نقائص أو أوجه خلل.

٤-و الخداع ينجم عن أى خلل أو نقص (١٧١).

٥-من غير المقدور أن يكون اله خداعا (١٧١).

و باختصار، إن الخداع لا يتوافق هو و طبيعة الله الكاملة الشاملة. و لن يكون الله كاملاً شاملاً إذا سخر قدراته للخداع، أو سيكون أقل اتصافاً بالكمال التام لو فعل ذلك على أقل تقدير، و لكنه كامل تماماً و من ثم فإنه ليس مخادعاً. و فى هذه النقطة فلعل "ديكارت" كان محقاً فى أغلب الظن عندما تخلى عن شكوكه فى إمكان الاعتماد على أفكاره الواضحة المتمايزة، و نكرر القول بأنه من الصعب أن ندرك كيف سيتسنى له بلوغ مقصده بغير الاستعانة بالأفكار الواضحة و المتمايزة. و على أية حال، فإننا سنحاول أن نرى بعد ذلك إلى أى حد تصور إمكان بلوغ معرفة الأشياء الأخرى خلاف وجوده و وجود الله و الطبيعة بعد أن شعر الآن بأنه فد أثبت إمكان الاعتماد على أفكاره الواضحة و المتمايزة.

العالم و الأشياء

بعد أن اقتنع "ديكارت" بإثباته وجود الله و عدم خداعه في "التأمل الرابع": يبدو لي أن أمامي طريقاً سينقلني من تأمل الإله الحق...إلى معرفة باقي الأشياء في الكون (١٧٣). و لقد ذكر ذلك بعد شعوره أن بمقدوره أن يثبت صحة أحكامنا على شريطة أن نجمعها قاصرة على الأشياء التي لا تتجاوز فهمنا. و إذا أمكنه إثبات ذلك، و سلمنا بصحة الأحكام المتصلة بالعقل و الله التي ناقشناها من قبل، فإنه يعتقد أنه سيكون قادراً على مواصلة إعادة إنشاء المعرفة التي يتطلع إليها، و البرهان الذي قدمه لتوطيد إمكان الاعتماد على الأحكام الصحيحة قد اتخذ صورة شبيهة بما يلي:

١-أن جميع القدرات التي لدي قد تلقيتها من الله.

٢-لدي القدرة على إصدار الأحكام من الأشياء.

و من ثم:

٣-فإن قدرتي على الحكم تعد منحة إلهية.

٤-و الله لن يفعل شيئاً يـــؤدى إلـــى خداعـــى أو وقوعى فى شراك الخطأ ما دام ليس مخادعاً.

و من ثم:

٥-فإن الله ما كان ليمنحنى قدرة قد تـــؤدى إلـــى وقوعى فى الخطأ لو أحسنت استعمالها (١٧٢).

و من ثم:

٦-فإن قدرتى على الحكم لن تؤدى إلى وقوعـــــى فى الخطأ، لو استعملتها بطريقة صحيحة.

و من ثم:

٧-فإذا استعملت قدرتى علـــــى الحكـــم بطريقـــة صحيحة فإننى فى هذه الحالة إذا أصدرت حكمـــــاً بصحة إحدى المسائل، فإنها ستكون صحيحة حقاً.

و قبل النظر فيما تعنيه صحة الحكم ســـأعقب باقتضـــاب على مقدمات هذه الحجة. و المقدمة الثانية لا غبار عليها، فنحن نصدر أحكاماً على الأشياء، و تثبت حقيقـــة قيامنـــا

بذلك أن لدينا القدرة على تحقيق ذلك. و المقدمة الرابعة تعتمد على سلامة الاستدلال الذى تحدثنا عنه آنفا، و إذا أبيناها فإن الحجة ستخفق. و لقد حاول "ديكارت" إعادة بناء المعرفة تبعاً لها. و المقدمة الأخرى الوحيدة هى المقدمة الأولى التى تنص على افتراض أن جميع قدراتى ممنوحة من الله، و هذه المقدمة ضرورية أيضا، لأن رفضها سيؤدى-على حد قول "ديكارت"-إلى تعذر حصولنا على أية معرفة بالعالم جديرة بهذا الاسم. و لم يحاج بخصوص هذه المقدمة هنا لأنه شعر أنه قد أثبتها بالفعل عندما ذكر فى (البرهان الثانى لوجود الله) إن الله وحده يمكن أن يكون علة وجودى كجوهر مفكر و جوهر قادر على الحكم بالتبعية، و إذا قبلت هذه الحجة، فإنه لن تصادف أية متاعب هنا. أما إذا رفضت هذه الحجة، أو اكتشفت أنها مستعصبة، و لكنها أقل من أن تكون برهاناً لا يتطرق إليه الشك، فى هذه الحالة، فإن البرهان سيتداعى بالمثل أو يضعف، و فى كلا الحالتين، فإنه

سيعجز عن أداء المهمة التى يشعر "ديكارت" بضـــــرورة القيام بها إذا أريد ضمان معرفتنا للعالم.

و لكن فلنسلم بالحجة، و ننظر -فى إيجاز- إلـــى مـــا رآه "ديكارت" عما تعنيه صحة الحكم، و تبعاً لتحليله، فإن فعل الحكم أو إصدار الحكم على أى شئ (يعنى القـــول بأنـــه موجود، أو أن له طابعاً ما دون الطابع الآخر) يعتمد على استعمال ملكتين:

<u>أولاً</u>: الفهم الذى تصور الأشياء عن طريقه.

<u>ثانياً</u>: الإدارة و بواسطتها (و بالاشتراك مع أشياء أخــرى) أؤكد أو أنفى أنها موجودة، أو لها طابع أتصور أنــــه من مقوماتها، و الملكتان على السواء مـــن نعـــم الله، و لكن فهمى محدود على نحو ما، بينما إرادتى ليست

كذلك، يعنى أننى قادر على تأكيد وجود الأشياء حتى إذا لم أفهمهاً بوضوح و تمايز من تأثير شرود الانتباه أو قصور الذهن، و عندما أفعل ذلك من أثر سوء الطالع فإننى أقع فى الخطأ، إن هذا هو معنى الحكم غير الصحيح، و لكن عندما أكتفى بتأكيد ما أفهمه بوضوح و تمايز، فإننى احكم حكماً صحيحاً، و اكتشف ما هى الحقيقة بالفعل، و اهتدى إلى المعرفة الحقة، فلما كان اله ليس مخادعاً، و لما كان الله منحنى قدرتى على الفهم، فلا بد أن يكون ما أفهمه بوضوح و تمايز حقيقياً، و إلا فإننى لن أحول دون تعرض لخداع، و هذا قد يعنى أن الله ربما يكون مخادعاً.

هنا يصح أن نشير إلى أن "ديكارت" يواصل الاعتماد على النتائج التى استخلصها من الحجج السابقة التى ناقشها. و فضلاً على ذلك، فإن تحليله لمعنى "الحكم"

يستحق التأمل إذا اعتمد معنى التحليل عنده على التفرقة الحادة بين الفهم و الإرادة أو التأكد، بعد أن نظر إلى هذه الناحية كمسألة مسلم بها لعهد طويل قبله و بعده، و إن كانت قد تعرضت للتحدى من قبل فلاسفة أكثر حداثة، و لست أوحى برفض تصوره لمعنى التحليل لمجرد أن هذه التفرقة قد تعرضت للتحدى، و لكن علينا أن ننبه إلى أن مناعتها قد أصبحت موضع شك.

على كل حال، فقد استخلص "ديكارت" فى نهاية "التأمل الرابع": أنه فى كثير من الأحيان عندما أكبح جماح إرادتى...أى اجعلها تكف عن إصدار الأحكام إلا فى المسائل التى تتميز بالوضوح و التمايز كما تمثلت للفهم، فإننى لن أكون عرضة للخداع (١٧٨). و فى بداية "التأمل الخامس" يقول: و الآن فإن مهمتى الحاضرة هو أن أحاول...البحث عن هل يمكن العثور على (أشياء) مؤكدة

يمكن أن تعرف عن الأشياء المادية (١٧٩). على أنه لـــم يهتد فى الواقع إلىَ الأشـــياء الماديـــة إلا فـــى "التـــأمل السادس"، لأنه ركز انتباهه فـــى البدايـــة علـــى حقـــائق الرياضيات، و اعتقد أنه بالاســـتطاعة تناولـــها بطريقـــة بسيطة نسبياً، لأن السبب الوحيد الذى أعتقد أنه دعاه إلـــى التشكك فيما فى "التأمل الأول" هو احتمال أن تكون أفكاره الواضحة و المتمايزة غير موثوق بها. و لكن لمـــا كـــان الآن قد أقنع نفسه بأنها جديرة بالثقة، فإنه استخلص أن أية فكرة تتعلق بالإعداد مثل حاصل جمع العدد ٢، و العـــدد ٣، أو الأشكال الهندسية (كخصائص المثلث على ســـبيل المثال) بالمقدرة إدراكها بوضوح و تمايز حقيقيين، و لـــم يزعـــم "ديكـــارت" أن الوحـــدات الرياضيـــة كـــالأعداد و المثلثات لها وجود فعلى بالمعنى الفيزيائى، و مع هـــذا فقد أراد أن يزعم أن فكرة أى عدد معين أو شكل هندســـى ما ليست مجرد فكرة تجريبية مســـتمدة مـــن التجربـــة، و لكنها بالأحرى ذات طبيعة محددة و صـــورة محـــددة

و ماهية محددة، لا تتغير، و أبدية، و لـــم اخترعـــها و لا تعتمد على أى نحو على عقلى (١٨٠).

و يشرح "ديكارت" هذا الرأى و يقول أنه قد اســـتند إلـــى أغلب حقائق الحساب و الهندسة عبارة عن حقائق نكتشفها باستعمال العقل وحده، و ليس اعتمـــاداً علـــى الحـــواس، و رغم اكتشافنا لهذه الحقائق فمن الواجب أن لا يظن أنــها حقيقة على طول الخط، فالأصح هو أننا نخترعها مثلمـــا نخترع تصورات كائنات خرافية كالقنطورات، و لا يرجع اتصاف الحقائق الرياضية و الهندسة بصدقها إلى اتصاف الأشياء الفيزيائية التى قد تشير إليها بنفس الصفات التـــى تتصف بها، إنـــها حقيقـــة باعتبارهـــا أشـــياء مســـتقلة، و بالاستطاعة الاهتداء إلى معرفتها حتـــى و إن تعـــذرت معرفة وجود الأشياء و طبائعـــها. فنحـــن لا نعـــرف أن حاصل جمع ٢+٣=٥، أو أن مجموع زوايا المثلـــث ١٨٠ درجة عن طريق الاستقراء من إدراكنـــا للموضوعـــات

الفيزيائية، و الأصح هنا أننا نعرفها بفضل ما نكتشفه أثناء تأملنا للأعداد و المثلثات و ما أشبهه.

و لكن الآن ماذا عن الموضوعات (الأشياء) المادية...لقد كان هذا هو السؤال الذى انتقل إليه فى "التأمل السادس" عندما قال: "لم يبق الآن للبحث خلاف مسألة هل الأشياء المادية موجودة لا بوصفها مجرد موضوعات للرياضيات البحتة، و إنما كأشياء موجودة و مشخصة، و أول سؤال قد يثار هو هل من الممكن أن تكون مثل هذه الأشياء موجودة مستقلة عن الجوهر المفكر يعنى عقلى، و خارجه و الأفكار التى لدى عن مثل هذه الأشياء، و جاءت إجابة "ديكارت" عن هذا السؤال بالإجابة إذ قال: لا شك أن الله يملك القدرة على إحداث (أى شئ) بمقدورى إدراكه متمايزاً...ما لم أصادف تناقضاً عندما أحاول تصوره واضحاً (١٨٥)، و لكن الفكرة الخاصة بأشياء مادية موجودة مستقلة لا تحتوى على تناقض ذاتى، و من ثم

فإنها تكون ممكنة، و بالمقدور طرح المقصود هنا على نحو أبسط دون إشارة إلى الله، و قد لا يعترض سوى قلائل على هذه النقطة التى تتلخص فيما يلى: إن الأشياء المادية ممكنة منطقياً، و من ثم فإنها تكون ممكنة بالفعل- و إن كان لا يتبع ذلك بطبيعة الحال-وجوده بالفعل، و هو ما كان "ديكارت" أول ما يصر على قوله.

و من ثم فهل تعد هذه الأشياء موجودة بالفعل؟ سوف أتخطى الحجة الخاصة بوجود الجسم إسناداً إلى قوة الخيال التى أكتشف "ديكارت" أن يتمتع بها (١٨٦-١٨٧)، فكما اعترف هو بالذات فإن وجود قوة الخيال إلى جانب الفكرة التى لدينا عن وجود الجسم، لن تيسر لنا "الحصول على أية حجة يمكن أن يستخلص منها بالضرورة وجود الجسم"، و لما كان هذا النوع من الحجة هو الذى يجب أن يهتدى إليه إذا أريد امتداد برنامج إعادة إنشاء المعرفة بحيث يشتمل على الأشياء المادية، لذا اضطر "ديكارت"

إلى محاولة اتباع نهج آخر للحصول على نتائج ترقى إلى ما هو أبعد من التخمينات القائمة على احتمالات (١٨٧).

و البرهان الذى انتهى إله قد مر بخطـــوات شـــبيهة بمـــا يأتى:

١-لدى أفكار عن أشياء مادية متنوعة.

٢-محال أن يظهر أى شئ للوجود من تلقاء نفسه.

و من ثم:

٣-تكون هذه الأفكار قد تكونت و ترتبت على شئ موجود ما.

٤-هناك أربعة أشياء موجودة و ممكنـــة، و هـــى أربعة فقط، بمقدورها إحداث هذه الأفكار: نفســـى و الله و الأشياء المادية الفعلية، أو أى كائن أســـمى من نفسى و لكنه أقل من الله.

٥-و أنا كما أنا لأن الله قد خلقنى على هذا النحو.

٦–لدى ميل قوى للاعتقاد أن هذه الأفكار الخاصة بالأشياء المادية قد انبعثت من أشياء مادية فعلية.

٧–فإن لدى هذا الميل لأن الله كان علة حصولى على هذا الميل.

٨–و لو كانت هذه الأفكار قد انبعثت من نفسى أو من الله، أو من أى كائن آخر أسمى منى و لكنه أقل من الله، فإن هذا الميل كان سيتسبب فى خداعى.

و من ثم:

٩–لو كانت هذه الأفكار قد انبعثت من أى مصدر من هذه المصادر الثلاثة سيكون الله مخادعاً.

١٠–و الله ليس مخادعاً.

و من ثم:

١١–فإن هذه الأفكار لم تنبعث من أى مصدر من هذه المصادر الثلاثة.

و من ثم:

١٢-لابد أن تكون هذه الأفكار قـد انبعثـت مـن الأشياء المادية الفعلية.

و من ثم:

١٣-لابد أن تكون الأشياء المادية الفعلية موجودة.

و من المقدور تبسيط هذه الحجة قليلاً بحذف أية إشـارة إلى مصادر ممكنة أخرى لأفكـارى الخاصـة بالأشـياء المادية دون حدوث تعديل ذى بال لهذه الحجة، و فى كـلا الحالين سنخلص إلى الرأى القائل بأنه لما كنت غير قـادر على الاعتقاد بأن الأشياء المادية هى مصدر ما لدى مـن مدركات للأشياء المادية، و لما كان الله الذى يتصف بعدم خداعه قد خلقنى على هذا النحو، لـذا يتعين أن تكـون الأشياء المادية الفعلية هى مصدر هذه المدركات، و علـى هذا فيجب أن تكون موجودة بالفعل.

لا يخفى أن هذه الحجة لن تحقق غايتها فى حالة رفـــض إحدى الحجج التى ذكرهـــا "ديكـــارت" عـــن وجـــود الله و خيرته، و لكنها تعتمد على ما هو أكثر من ذلك أيضـــاً، و إذا سلمنا أن الله موجود، و أنه علة وجودى، إلا يتبـــع ذلك بالفعل وجوب كونه علة ميلى للاعتقاد بأن مصـــــدر مدركاتى للأشياء المادية هو الأشـــياء الماديـــة الفعليـــة؟ و فوق كل شيء، فلقد اعترف "ديكارت" بأن لدينا أيضـــاً الميل لإصدار أحكام عن الأشياء التى لا نفهمـــــها فـــهماً واضحاً و متمايزاً : إلا أنه عزا هذا الميل لأنفسنا، و ليس إلى الله . فمن أين أتى الاختلاف بين الحـــالتين ؟ فلنســـلم بأننى قد أكون متأكداً من أننى لم أخدع، إذا اقتصرت على تأكيد ما أفهمه بوضوح و تمايز، و هو كل مـــا ســـبق أن قاله "ديكارت"، و قد ترتب على كون الله ليس مخادعـــاً، و ما من شك أننى لا أفهم بوضوح و تمايز ان الأشـــياء المادية الفعلية هى مصدر أفكارى عنها، و دون بـــذل أى عناء، فأن صح ذلك، سيكون نوع البرهان الذى عرضـــه

"ديكارت" بلا ضرورة. و لكن إذا لـــم أســتطع أن أدرك على الفور بوضوح و تمايز من مجرد فحص أفكارى عن الأشياء المادية أن مصدرها هو الأشياء المادية الموجــودة فعلاً، فما الذى يجبرنى على التوقف عن إصدار حكمـــى على المادة؟

و أكرر، لكى أمضى قدماً فى الكلام عن هذا الموضـــوع بطريقة تختلف عن طريقتى التى أتبعتـــها فـــى الحـــالات الأخرى التى كنت ميالاً فيها لأتحاذ موقف التأكيد الـــذى تجاوز قدرتى على الفهم بوضوح و تمايز، فقد كان مـــن واجب "ديكارت" أن يرجع ميلى للاعتقاد بـــأن الأشـــياء المادية الفعلية هى مصدر مدركاتى الحســـية و أفكـــارى الخاصة بالأشياء المادية إلى سبب خاص بحيث يبدو مـــن المعقول أن ينسب هذا الميل إلى الله، بينما تنسب الميـــول الأخرى (التى قد تكون مماثلة) إلى المغـــالاة مـــن قبـــل إرادتى أن هذا انتقاد مستقل عن الانتقادات التى قد توجـــه

إلى حجج "ديكارت" السابقة، و يوجه إلـــى هــذه الحالـــة بالذات . و ليس لدى "ديكارت" أية إجابة مقنعة علية، كمــا هو واضح. على أنه إذا تعذر على "ديكارت" تقديم أجابـــه ما، فأن البرهان لن يستطيع تحقيق غايته، و من ثم فأنـــه سيكون قد أنتهى إلى عدم الاهتداء إلى وسيلة تساعد علـــى جعل أعادته إنشاء المعرفة تمتد بحيث تشمل المواد التـــى تخص العالم الخارجى المفترض للأشياء المادية.

و لكن الآن، و لنسلم جدلاً أنه قد تم إثبات وجود الأشـــياء المادية فماذا بمقدورنا أن نعرفه عـــن طبائعـــها، و عـــن خصائصها ؟ ليس من شك أن معظـــم النـــاس مقتنعـــون بوجود أشياء مادية حتى و أن لم يعتقد بعضهم فى صحـــة حجه "ديكارت" عن وجودها، و كانت أجابته عن سؤال ما باستطاعتنا أن نعرفه عن خصائصها مشوقاً نوعاً لأنه لـــم يتبع الاتجاه الآن الذكر فى الاستدلال، ذو يحاجى بـــالقول بأن الأشياء المادية لديها فى الواقع جميع الخصائص التـــى

تميل إلى الاعتقاد بأنها تخصها، و لقد قام بالاستدلال وفقاً لهذه الأسس المخَتلفة و استخلص انه عندما تتنوع مدركاتنا فيتحتم أن تكون هناك تنوعات مناظرة قد حدثت للأشياء المادية ذاتها لكى تفسر تنوعات مدركاتنا، و لكنه يعترض على اعتقادنا بأن عدداً من الخصائص التى نعتقد عادة أنها كامنة فى الأشياء ذاتها لا يمكن فى واقع الأمر القول بأنها كذلك . هذه الخصائص هى التى أسساها "الكيفيات الثانوية" كالحرارة و اللون و المذاق على سبيل المثال . فهذه الكيفيات كما ندركها، لا يمكن النظر إليها على أنها كيفيات للأشياء ذاتها، لأنه من اليسير بيان أن إدراكنا لهذه الكيفيات يتأثر بحواسنا، و يتنوع تبعاً لحالات أعضائنا الحسية . و يعتقد "ديكارت" أنه عندما تبقى حالة الأعضاء الحسية ثابتة، و نظل ندرك تغيراً فى اللون أو الحرارة أو ما أشبه، فلابد أن يحدث تنوعاً مناظراً فى الشئ، و أن لم يكن باستطاعتنا اكتشاف ماهيته على وجه الدقة.

على أنه بينما يتعذر اكتشافنا - بدقـــه - لماهيــة التنــوع المناظر الذى يحدث ، فأن "ديكـــارت" يشــعر أنـــه مـــن المعقول افتراض إرجاع ما يحدث فى هذه الحالــــة إلـــى تغير يطرأ على مجموعة أخرى من الكيفيـــات، بوســـعنا جميعاً أن ندركها، و نعتبرها هى الكيفيات الفعلية للأشــياء ذاتها (إذا تحدثنا هنا بوجه عام) على أقل تقدير . و هـــذه الكيفيات هى ما يسمى (بالكيفيـــات الأوليـــة) كالشـــكل و الحركة و العدد.

و يعترض "ديكارت" على ما يقال بأن الكيفيات من هـــذا القبيل لا تتأثر بحواسنا على نحو ما يحدث اللون و المذاق و ما أشبه، و من ثم فعندما تحدد مثلاً شـــكل أى شـــىء، فأننا نكون قد اكتشفنا خاصة فعلية فيه . و نرجع التغيرات التى تطرأ على الكيفيات الثانوية التى ندركها إلى تغـيرات دقيقة تحدث للكيفيات الأولية للشىء فإذا سلمنا بهذه النظرة

إلى المسألة يتعين أن يكــون واضحـــاً لمــاذا اســتعملت مصطلحات مثل ًأولية و ثانويـــة للإشـــارة إلـــى نوعـــى الكيفيات. فالكيفيات الأولية هى الكيفيات التى لدى الأشياء ذاتها، و التى تتماثل هى و ما ندركه فيها الى حد كبـــير . بينما الكيفيات الثانوية هى الكيفيات التى ليســت للأشـــياء حقا كما ندركها، و لكنها بالأحرى احساسات لدينا تثيرهـــا أو تحدثها الأشياء كنتيجة للتفاعل بين الكيفيـــات الأوليـــة و أعضائنا الحسية.

و جاءت إجابة "ديكارت" عن سؤال ما بمقدورنا أن نعرفه عن الأشياء المادية على هذا النحو: نحن قـــادرون علـــى معرفة ماهية الكيفيات الأولية للأشياء المادية عندما تكـون مؤلفة من مقادير تساعدنا على إدراكـــها . و بوســـعنا أن نكون أفكاراً واضحة و متمايزة عن هذه الكيفيات. و لمـــا كانت أفكارنا الواضحة و المتمايزة قد أثبتت إمكان الوثوق بها (لأسباب تتعلق بوجود الله و خيريته) فأننـــا قـــادرون

على معرفة أن الأشياء لديها هذه الكيفيات التى نســـتطيع أن نكون أفكاراً واضحة و متمايزة عنها. على أن معرفتنا محدودة، و بخاصة فيما يتعلق بملامح الأشياء المرتبطـــة بإدراكنا للكيفيات الثانوية. فليس بمقدورنا أن نعرف عـــن هذه الأشياء إلا أن لها ملامح معينة هى التى " تحـدث" أو تثير هذه المدركات لدينا. و قد نفترض أنها صيغ لكيفيـات أولية يتعذر إدراكها. غير أننا لا نستطيع تكويـــن أفكـــار واضحة و متمايزة لهذه الملامح على وجه الدقة،و من ثـم فليس بوسعنا الحصول على معرفة حقيقية بها.

و لنتذاكر الآن الأسباب الثلاثة التى أوردهـــا "ديكـــارت" أصلاً للتشكك فى شهادة الحواس، و التى أعاد الكلام عنها فى " التأمل السادس " و نرى كيف تناولها بعد أن شـــعر الآن بإمكان ضمان قبول شهادة الحواس شريطة الالـــتزام بحدود ثلاثة. و تتعلق الأسباب الثلاثة بما يأتى:

أ) حقيقة أننى كثراً ما تخدعنى حواسى.

ب) احتمال أن أكون فى لحظة مـــا غارقـــاً فـــى أحلامى، وَ من ثم فأننى لا أكون مدركـــــاً للعـــالم الحقيقى على الإطلاق.

ج) أننى ربما أكون معرضاً للخداع بحكم تكوينـــى الذى يسوقنى إلى الوقوع فى الخطأ.

و شعر "ديكارت" أنه تمكن من استبعاد آخر هذه الأســباب الثلاثة اعتماداً على حجته العائلة أن الله موجود و خـــير، و بوصفى من مخلوقاته فلا يمكن أن أكون قـــد اتخــذت تكويناً يساعد على استمرار وقوعى فى أخطاء لا منـــاص منها، و فيما يتعلق بالسبب الأول فبينما يعترف "ديكـــارت" بأنه رغم استمرار إمكان خداع الحواس لى فـــى بعـــض المناسبات، إلا أنَّهَ شعر أنه قد بيـــن أن الأخطـــاء التـــى تترتب على هذا المصدر بالاستطاعة تجنبـــها بالاعتمـــاد على الاستعمال الصحيح لملكة الحكم و تجميع الأدلة مـــن مختلف الحواس، بالإضافة إلى الوثوق مـــن خيرتـــه الله،

التى منحنى ملكات جديرة بالثقة إذا أحسن استعمالها، و أخيراً و فيما يخص إمكان استغراقى فى الحلم، فلقد شعر "ديكارت" أنه بمقدورنا أن نطرح جانباً شكوكنا المستمدة من هذه الإمكانية إذا التزمنا الحرص، و لاحظنا إمكان إحداث تكامل بين ما نعتقد أننا نجربه و بين باقى التجربة. و رأى أنه لو تحقق ذلك، فأننى سأكون على يقين من أننى لا أحلم، و على حد قوله:

"لقد اكتشفت اختلافاً ملحوظاً بين (الحلم و اليقظة) استناداً على عجز ذاكرتنا عن الربط بين أى حلم من أحلامنا و الأحلام الأخرى، و تيار حياتنا برمته مثلما نربط بين الأحداث التى نتعرض لها عندما نكون يقظانين...و عندما يتسنى لى الربط بين ما لدى من مدركات بلا تقطع... بتيار حياتى فى جملته، فأننى سأكون متأكداً تماماً أن هذه المدركات قد وقعت عندما كنت يقظان، و ليس أثناء

النوم....فلما كان الله ليس مخادعاً على الأطلاق، فأن مـــا يتبع ذلك هو أننى لست منخدعاً فى هذا الشأن "(١٩٩).

و شعر "ديكارت" بعد هذا الرأى أن أعاده بنـــاء معرفتنـــا التى شرع فى إنجازها قد تحققت من حيث المبـــدأ علـــى الأقل، أما ما بقى أمامه فهو الشروع فى تحديد ما للأشياء الموجودة من خصائص و أنماط مميزة فى نطاق القيـــود التى فرضها على أحكامنا، فمـــن المحـــال أن تتســـاوى معرفتنا فى الكمال هى و معرفة الله بالذات، و أن كان فى مقدورنا أحكام معرفتنا و جعلها يقينية فى المجالات التـــى نرى أننا نعرفها أو بوسعنا أن نعرفها فى المقـــام الأول، و الاختلاف بين الحالين أننا نعرفها الآن بالفعل، بينما فيما سبق لم يكن بالمقدور القول أننا نعرف أنها حقيقيـــة، أى معرفة (يقينية).

فما أشبه الصورة العامة للواقع التى تبرز من نقاش "ديكارت" بالنظرة التقليدية إليه، كما أنها مماثلة إلى حد كبير للنظرة التى يعتقدها كثيرون هذه الأيام.

فأولاً:- هناك عالم مؤلف من أشياء مادية - أشياء معتدة ذات أشكال متنوعة، بعضها يتحرك و الآخر ساكن، فى أعداد كبيرة أن هذه الأشياء قائمة هناك لا أكثر و لا أقل، بما لها من كيفيات أولية متنوعة تجعلها تتماثل و تختلف على شتى الأنحاء بمعزل عن تصورنا لها و عن إدراكنا لها . و هناك تداع بين هذه الأشياء المعتدة و أشياء من نوع أخر نسميه العقول و النفوس. و ليس هناك تماثل بين هذه العقول أو النفوس و بين الأشياء أو الأجسام البشرية، و الأصح أنها مختلفة عنها و متمايزة و مستقلة أساساً عنها، حتى و أن كان هناك ارتباط وثيق بينهما فى العالم، و هكذا يكون هنلك

نوعان أساسيان من الأشياء أو الجواهر فى العـــالم : الجواهر الممتدة التـــى لا تفكـــر، و الجواهـــر المفكرة أو العقول غير الممتدة.

و أخيراً:-فهناك شيء أعظم من ذلك. أنه الله الكـــائن ذو الكمال الشامل الذى أوجد جميـــع الأشـــياء فـــى الوجود، و منح كلا منها عقلاً، و منـــح الأشـــياء المعتدة جميعاً الكيفيات التى لديها.و يقتصـــر دور الأشياء الممتدة العاجزة عن الفكر على التفـــاعل فيزيائيا بعضها مع بعض، أما الأشياء المفكـــرة أو العقول فقادرة على الاهتداء إلـــى معرفـــة ذاتـــها و معرفة الأشياء المفكـــرة الأخـــرى و الأجســـام الممتدة الأخرى فى العالم،و فى نهايـــة المطـــاف فأنها قادرة حتى على معرفة وجود الله و طبيعتـــه (برغم محدوديتها فى هذا الشأن). كل هذا بفضـــل الله الذى زودها بملكات الإدراك و الفـــهم تحـــت

ضمان رحمته التى تيسر الاعتماد على هذه الملكات. خلاصة القول فأن "ديكارت" الذى بدأ بالتصميم على الشك فى كل شيء، انتهى من الناحية العملية إلى عدم إنكار أى شيء من النظرات التقليدية المقبولة للعالم أو غاية ما هناك أنه شعر فى النهاية أنه لم يعد يقبل هذه النظرة إلى العالم من باب الإيمان و لكنه بالأحرى قد أصبح يعرف صحتها عن يقين.

و هكذا، و كما أشرت من البداية ، فأنه من الصعب وصف نتائج "ديكارت" بالنتائج الثورية. أما ما كان ثورياً فهو مطلبه بوجوب إخضاع الافتراضات التقليدية لاختبار التحليل العقلانى، و ضرورة إنكار وصفها بالمعرفة إذا اتضح أنها لم تصل إلى درجة اليقين الكامل، أو تعذر برهنتها بعد التأكد الكامل من صحتها. و لقد آتى بحجج أعتقد أنها بينت أن النظرة التقليدية للعالم صحيحة أساساً.

و لقد تشكك الفلاسفة اللاحقون فى بغض حججه، و عندما قاموا بفحصها انتهوا إلى نتائج مختلفة عنه فـــى جوانـــب شتى. و لكنهم يتابعوا عملهم بنفس الـــروح "الديكارتيـــة" بغض النظر عن مقدار اعتراضهم على حججه و نتائجـه. و كانت الرغبة تحدوهم أيضاً إلى تحديد ما بـــالمقدور أن يعرف الواقع، و كانوا على استعداد لرفـــض المعتقـــدات التقليدية من المتعذر تبريرها عقلانياً. و إذا أدى الاستدلال الصحيح إلى الاهتداء إلى نتيجة ترى أن الواقـــع مكـــون على نحو جد مختلف عما اعتقد تقليدياً فما بـــاليد حيلـــة، و سيكون هـــذا مـــن ســـوء حـــظ معتقداتنـــا التقليديـــة و المألوفة...و هذا هو ما سعى إليه "ديكارت" بالذات[1].

---

[1] ص ١٢٢ : د/ زقزوق : دراسات فى الفلسفة الحديثة.

أثر فلسفة ديكارت

لقد أثرت فلسفة "ديكارت" تأثيرا كبيراً فى فكر الفلاسفة الذين جاءوا من بعدة فلا يمكن منهم فكر الفلاسفة العظام الذين تأثروا به من أمثال " ليبنتز و كانت و المثالين الألمان دون مراعاة الأفكار التى قدمها "ديكارت" لهم جميعاً و مجمل القول هو أن فلسفة هذا المفكر العظيم كان لها تأثير حاسم على تطور الفكر الفلسفى، فقد أحدثت أفكاره العميقة صدى بعيد المدى فى كل أنحاء أوربا، و اعتبرت فلسفته أعظم ثورة فلسفية عرفها تاريخ الفكر الفلسفى منذ سقراط، و ما من مثقف فى أوربا و قد تأثر بديكارت بشكل أو بأخر، بصورة أو بأخرى و من أجل ذلك كله فقد اعتبر "ديكارت" بحق زعيماً لفكر الفلسفة الحديث و أباً للفلسفة الحديثة كلها[١].

---

[١] ص١٢٢: د/ زقزوق: دراسات فى الفلسفة الحديثة.

تعقيب

لعل الفلسفة الديكارتية بعد هذا العرض المجمل قد اتضحت جوانبها و تكشفت مشكلاتها و بقيت لنا وقفة متأنية أمام بعض النقاط:

١-لا شك أن أهم ما فى هذه الفلسفة هو المنهج الديكارتى الذى كان له دورى هائل فى الأوساط الفلسفية.

كما كانت له قيمته العلمية و أثرة الإيجابى فى توجيه الحياة الفكرية إلى مسارها الصحيح و مع ذلك فأن "فرنسيس بيكون" يعتبر الأوهام الأربعة تمهيداً حقيقياً للمنهج الديكارتى، و يأخذنا العجب والإعجاب حين نجد قواعد المنهج الديكارتى متناثرة فى آيات القرآن الكريم تجلو للناس أصول المنهج الفكرى الذى ينبغى على النلس أن يتبعوه.

و تطول وقفتنا كثيراً لو أخذنا فى استعراض هذه الآيـــات و استنباط ما تضمنته من قواعـــد "ديكـــارت" معروضـــة بأسلوب يأخذ حقاً بالألباب .

و نكتفى هنا بالإشارة إلى خواتيم ســـورة الحشـــر حيـــث قررت الكمال الإلهى جملة ثم حللت هـــذا الكمـــال إلـــى عناصره الأساسية التى يتألف منها ثم أعـــــادت التحليـــل و التركيب أكثر من مرة حتى إذا تشربت النفوس معنــــى الأيمان الصادق بهذا الكمال أتبعته بالناحية العملية التــــى يقتضيها هذا الأيمان و هذه الناحية العملية مفقودة تمامـــــاً فى قواعد "ديكارت" الأربع.

(هو الله الذى لا اله إلا هو عالم الغيب و الشـــهادة، هـــو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا اله إلا هو الملك القـــدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ســـبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارى المصور له الأســـماء

الحسنى يسبح له ما فى السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم)[1].

٢-لقد عرفنا أن من أسس الفلسفة الديكارتية طريقة الشك و التمحيص و الشك وسيلة لتطهير النفس و تصفية الذهن و قد قيل أن الشك هو مبدأ الحكمة و مدرسة الحقيقة و هنا تجدر الإشارة إلى التفرقة الحاسمة بين نوعين من الشك:-

١ - الشك كنظرية.

٢ - الشك كمنهج.

و نعنى بالنوع الأول الشك لذات الشك - أو الشك لهدم الحقيقة و لعل أقوى أمثلته بهلوانية السوفسطائية فى زعزعة الحقائق و زلزلت اليقين بها و من أمثلته أيضاً: شك المفكر الفرنسى "مونتانى".

---

[1] آيات من ٢٢ إلى ٢٤ سورة الحشر.

أما النوع الأخير فيعنى به الشك لإثبات الحقائق و دعم الثقة بها و الاطمئنان إليها و هذه هى غاية الشك الديكارتى و على الرغم مما يذكر لديكارت من الفضل فى شكله إلا أنه مسبوق فى ذلك بالإمام الغزالى الذى رسم منهج الشك واضحاً فى كتابه (المنقذ من الضلال) و الفرق بين الرجلين أن أحدهما ظل فى شكله معتصماً بالعقل حتى أنتهى به إلى شاطئ اليقين بينما لم يجد الآخر مخرجاً من لحجج شكه إلا معاناة التجربة الصوفية التى تبدد ظلمات الشك بنور يقذفه الله تعالى فى الصدر و من ذاق عرى، و من حرم انحرف[1].

٣-حاول "ديكارت" أن يستدل على وجود الله ليكون ذلك أساساً لإثبات صحة الحقائق التى نعرفها عن العالم الخارجى.

و نذكر أنه ساق لهذه الغاية أربعة براهين متمايزة:

---

[1] ص ٥٠٩ و ما بعدها: د / رفقى زاهر : أعلام الفلسفة الحديثة.

الأول يعتمد على فكرة اللا متناهى.الثابتة فى الذهن الإنسانى-و أساسَ هذا البرهان أنه لابد أن يكون لكل فكرة ذهنية مدلول خارجى، و على هذا فأن فكرة اللا متناهى تقتضى موجوداً حقيقياً خارجياً لا يتناهى فى كمالاته السامية و هذا الموجود هو الله سبحانه و تعالى، و نستطيع أن نورد على هذا الدليل ملاحظة خاصة مضمونها أنه لا يتحتم أن يكون لكل فكرة ذهنية مدلول خارجى ...و قديماً تصور الناس الغول و العنقاء و خلعوا عليهما من صفات القوة و الافتراس ما تحفل به الأساطير و مع ذلك فليس فى الخارج موجود حقيقى يعرف بالغول و العنقاء فضلاً اللا متناهى فى أساسها ليست من العموم و الشمول بحيث يمكن اعتبارها فكرة فطرية يتسع لها ذهن رجل الشارع كما يسمعها عقل الفيلسوف و يجيب "ديكارت" عن هذا الاعتراض بأمور.

أولاً:- أن التأليف بين أشياء ناقصة لا يمكن أن ينتج فكرة الكامل.

ثانياً:- أننا لا نستطيع أن نتبين العناصر التى يزعمون أن فكرة الكمال تتألف منها مزج[1].

و أخيراً:- أن فكرة الكمال بسيطة بل هى أبسط الأفكـــار جميعاً، فهى فكرة بعيدة عن كـــل مـــزج و كـــل تركيب[2].

و لكن أجابه "ديكارت" كما نلاحظ أجابه غامضـــة و لا تنهض بحل الأشكال الوارد على دليله.

---

[1] ص ٥٩ و ما بعدها - أعلام الفلسفة الحديثة .

[2] ديكارت للدكتور عثمان أمين ص ٦٦١ .

أما ثانى البراهين الديكارتية على وجود الله فهو ناشئ عن البرهان الأول و مُترتب عليه فيمكن نقده فى ضــــوء مـــا عرفته من ملاحظات على البرهان الأول.

و لعل أقوى هذه البراهين و أوضحها هو البرهان الثـــالث الذى يعول فى إثبات الصانع الكامل على إثبات النقـــــص الإنسانى.

و على الرغم مما يمتاز به هذا الدليل من صلابــة و رواء و ما يظفر به من تأييد و إعجاب إلا أنـــه ليـــس مبتكـــرا تماماً.

فان مادة البرهان و مضمونه متناثرة فى القرآن الكريـــــم و بأسلوب معجز أخاذ من ذلك قوله جل من قائل أفرأيتـــم ما تمنون، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكـــم

الموت و ما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم و ننشئكم فيما لا تعلمون[1].

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى أن الموت جانب هام من جوانب النقص الإنسانى العام.

كما أن نشأة الإنسان من ماء مهين جانب آخر من جوانب هذا النقص و معنى ذلك أن النقص يكتب الإنسان فى بدايته و فى نهايته.

فلابد أن يكون للإنسان خالق كامل لا يلحقه العدم كما لا يطرأ عليه الحدوث.

بل هو وحده المنشئ الميت. و هذا الخالق الكامل هو الله سبحانه و تعالى.

---

[1] سورة الواقعة الآيات من ٥٧ إلى ٦١ .

و من هذا القبيل أيضاً قوله على لسان إبراهيم عليه السلام (الذى خلقنى فهوَ يهدين و الذى هو يطعمنـــى و يســقين و إذا مرضت فهو يشفين ، و الذى يميتنــى ثـم يحييــن و الذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الديــن). إلــى أن يقول (و أغفر لأبى أنه كان من الضالين)[1].

فقد عرض فى هذه الآيات طائفــة مــن وجــوه النفــس الإنسانى التى تتصل بوجوده المادى و النفســى . فمــن الناحية الأولى أشار إلى الجوع و العطــش و المــرض و الموت و هى علامات قصور بارزة تكتنــف وجــود، بوجوده المادى.

و من الناحية الثانية ذكر الخطيئة و الضلال و لم يفتــه أن يصف أصله المباشر بشىء من هذا ليقطع عنــه مظنــة الخلق و الإيجاد.

---

[1] الآيات من ٧٧ إلى ٨٦ من سورة الشعراء.

و هكذا انفرد الله وحده بالكمال و رجع إليه وحده أيجاد البشر و إمداد الحياة بما يرد إليها من هؤلاء البشر الناقصين القاصرين ليكون تصورهم مظهراً لقدرته الشاملة و يظل نقصهم دليلاً على كماله الأبدى.

و الذى تجدر الإشارة إليه من قبل لأن نفرج من هذه الملاحظة هو أن "ديكارت" عول فى برهان النقص الإنسانى على النقص النفسى دون النقص المادى إذ الأول يتعلق بالنفس و يتمثل بوضوح فى ظاهرة الشك و قد عرفنا أنه أثبت النفس أولاً بمبدئه القائل (أنا أفكر إذن أنا موجود).

أما النقص المادى فيتعلق بالجسم و هو فيما يرى "ديكارت" ضمن العالم الخارجى الذى أثبته بعد أن أثبت وجود النفس و الإله.

بقى من البراهين الديكارتية على وجود الله برهانه المعروف بالبرهان الأنطلوجى و نذكر أن هذا البرهان يرتكز على فكرة أن مجرد تصور صفات الكمال يستلزم بالضرورة استنباط الألوهية أو إثبات وجود الله، تماماً كما تستنبط فكرة المثلث بمجرد تصور زواياه.

و الواقع أن "ديكارت" و غيره من القائلين بهذا الدليل فيما بعد يخلطون بين نوعين مختلفين من الوجود.

أحدهما الوجود الذهنى الذى يقصد به مجرد التصور فى العقل.

و الثانى الوجود الخارجى أو الواقعى الذى يقصد به التحقق فى الخارج بالفعل و هذا النوع الأخير هو الذى نتجه إلى إثباته بصدد الحديث عن الألوهية و يتجه الملحدون إلى رفضه و إنكاره.

و الدليل المذكور لا يؤدى إلا إلى النـــوع الأول أى إلـــى الوجود الذهنى و هو ليس محل الـــنزاع بيـــن المنبتيـــن و الرافضين أو بين المؤمنين و الملحدين.

و قد تعرض هذا الدليل لكثير من هجوم النقـــاد و كـــان أقربهم إلى الدنـــة و الموضوعيـــة الفيلســوف الألمـــانى "كانط" فقد ركز نقده فى الملاحظات التالية:

أولاً:- أن القضية أمـــا أن تكـــون تحليليـــة أو تأليفيـــة.

فالتحليلية ما يكون المحمول فيها متضمناً فى ماهيـــة الموضوع و يمكن استخلاصه منه بتحليل بسيط.

و التأليفية ما يكون المحمول فيها دالاً على وصـــف لا تشمله ماهية الموضوع و لا شك أننا فى القضيـــة التحليلية نقع فى تناقص منطقـــى إذا نحـــن أثبتنـــا الموضوع و نقينا المحمول، كما إذا فرضنـــا مثلثـــاً و نفينا أن تكون زواياه الثلاث متساوية فـــائتين لأن

المحمول هنا متعلق بالموضوع و المحمـــول معـــاً، كأن نلغى المُثلث مع زواياه الثلاث إذ لا يبقى حينئذ شىء يمكن أن يقع فيه تناقص و الأمر كذلـــك فـــى فكرة الله أو الكائن الكامل، نكون متناقصين إذا أثبتنا وجود الله و نفينا صفة من صفاته كالقدرة، لأن هذه الصفة متضمنة فى معنى الكائن الكامل . لكـــــن لا تناقص ألبته إذا أنكرنا وجود الله ذاته، لأننا نكون قد حذفنا الموضوع مع محمولاته كلها، فليس هنـــــالك شىء خارجه يكون فيه حينئذ تناقص، مـــــا دامـــت ضرورة الموضوع لم يفـــــترض فيـــها أن تكـــون مستمدة من شىء خارجى، كما أنه ليس ثمة شـــــىء داخلى يمكن أن يقع فيه تناقض، ما دمنا فى إنكارنـــا للشىء ذاته قد أنكرنا فى الوقت نفسه جميع صفاتـــه الملازمة له.

ثانياً:- فإذا اعترض الديكارتيون بأن معنى الكائن الكامل معنى فريد، يمتاز بأن الوجود فيه يمكن أن يستخلص من نفس الماهية، كان جواب كانت على الاعتراض أن هذه القضية (الله موجود) أما أن تكون تحليلية أو تأليفية. فإذا كانت قضية تحليلية، كان من التناقض حقاً أن تثبت الموضوع و نسلب المحمول لكننا فى هذه الحالة أعنى بإثباتنا وجود الشىء لا نضيف معنى جديداً إلى فكرة عن الشىء و إذن فواحدة من اثنتين، فأما أن يكون الفكر الذى هو فينا يلزم أن يكون هو الشىء نفسه أى هو الوجود فى الذهن، و أما أن نكون قد فرضنا وجوداً ما داخلاً فى مجال الإمكان، و كأن الوجود قد استخلص حينئذ من الإمكان الداخلى، و ما ذلك إلا تحصيل حاصل و تكرار عقيم.

و محصل القول أننا لا نستطيع أن نستخلص مـــن فكرة الله بَالتحليل إلا فكـــرة الوجـــود الذهنـــى لا الوجود العينى كما يقولون.

و إذا كانت القضية تأليفية و كل قضيه وجوديـــــه هى تأليفية بالضرورة - فكيف صلح لـــ "ديكارت" أن يزعم أن من التناقض فى القضيـــة أن يســـاب محمول الوجود عن الله، مع أن هذه المزيـــة لـــم تختص بها إلا القضايا التحليلية، التى من شـــأنها أن تقوم على مبدأ عدم التناقض، فـــى حيـــن أن القضية التى نحن بصددها تأليفية؟

ثالثاً:- الوجود ليس محمولاً يمكن أن يضاف إلى الماهيـــة فيوسع مفهومها المنطقى و الوجود ليس كمالاً مـــن الكمالات، و ما الوجود إلا نفس وضع الشـــىء أو إثباته خارج الذهن و بم يكون الكائن كاملاً ؟ بمـــا

يملك من صفات كالفهم و القوة و الجمـــال و مـــا إليها. و لكن الوجود ليس صفه من تلك الصفـــات فمن حيث الكمال ليس الموجود شيئاً و إذا وجـــــد كائن لا يملك من الكمالات إلا الوجود استطعنا أن نقول أن ذلك الكائن خال من أى كمال، و بعبـــارة أخرى الواقعى لا يحتوى على شىء أكثر مما فـــى الممكن المحض ومائة من النايليرات الموجودة فى الواقع لا تحوى شيئاً أكثر مما تحويه مائـــــه مـــن النايليرات الممكنة و كذلك ليست فكرتى عـــن الله موجوداً بأغنى و لا أوفر من فكرتى عنـــه غـــير موجود بل أن مضمون فكرتنا عن الله واحد سواء تصورنا، موجوداً أو غير موجود و خلاصة هـــذا النقد كله أن الدليل الأنطلولوجى فى نظر (كـــانت) يتضمن خلطاً بين مرتبة الفكر و مرتبة الوجـــــود فى ذاته، و أذن فهذا الدليل لا يصح إلا عند فلسفة كالأفلاطونية توحد بين المرتبتين أو المستويين.

قال (كانت) (أن ذلك الدليل الأنطولوجى الديكارتى[1] الذى امتدحه الناس كثيراً، و الذى يزعم أن يثبت بواسطة تصورات وجود كائن متعال ليس إلا مضيعة للوقت و الجهد، و لن يصبح الإنسان أوفر معرفة بمجرد معان، كما أن التاجر لن يصبح اكثر مالاً إذا خطر له أن يزيد فى إيراده، فأضاف إلى دفتر الحساب بضعه أصفار).

رابعاً:- و ثمة موضع بارز من مواضع النقد و المؤاخذة. بمناسبة محاولة "ديكارت" البرهنة على وجود الصانع، فقد زعم أنه جرد ذهنه من سائر المعارى و المعلومات و الخواطر و الأفكار ليبث أرجله الشك من أول الطريق و لكنه سرعان

---

[1] "دياكارت" للدكتور عثمان أمين ص ١٧٤ و ما بعدها.

ما فاجأنا بفكرة اللا متناهى ليقيم علـــى أساســها براهينه.

فكيف يتفق ذلك مع ما افترضته من خلو النفـــس تماماً عن سائر الخواطر و الأفكار.

و يبدو أن "ديكارت" قد استشعر هـــذا الأشـكال فحاول أن يقسم الأفكار إلى فطرية و غير فطريـة كما سبقت الإشارة، ليجعل فكرة الألوهيـــة مـن النوع الأول. و لكن هذه المحاولة لا تغنيه كثـيراً أمام هذا النقد القوى.

أولاً:- لأن فطرية بعض الأفكار لا يزال أمـــراً نظرياً لم يثبت بعد بالطريق القطعى.

ثانياً:- لأنه على فرض التسليم بدعوى فطريـــة بعض الأفكار فأن فكرة الـــلا متنـاهى أو فكرة الألوهية ليست من هذا النوع أى مـن

نوع الأفكار الفطرية التى يشـــترط جميــع
الناس فى إدراكها على مستوى واحد مـــن
الموضوع و يقطع النظر عن اختلافهم فــى
البيئة و الثقافة و نمط التفكير.

و لو أن الألوهية فكرة فطرية ما اختلف الناس فى
تصور الإله هذا الاختلاف الكبير الـــذى يصــل
أحياناً من السذاجة عند بعض القبائل البدائية إلـــى
حد يبعد بالإله تماماً عن كل كمال.

بل لو كانت الألوهية فكرة فطرية ما وجد علـــى
الإطلاق ملحد يقول بتعطيل الكون عن الإله.
و هذا هو ما أشار إليه الفيلسوف الإنجليزى "جون
لوك" كما سيأتى.

و لعل عناية الأديـــان ينصـــب الأدلـــة و تنويـــع البراهين لإثبات هذه العقيدة الأساسية مما يعـــزز رأى "لوك" و يبعد بفكرة الفيلسوف الفرنسى كثيراً عن القبول.

لا يقال أن ما فى الأديان مـــن ذلـــك أن هـــو إلا مجرد تنبيهات لاستحضار الأمر الفطـــرى لأنـــا نقول (أن الفطرى يستحضر بأدنى تنبيه فلا يحتاج إلى مثل هذه العناية و كل هذا الإلحاح).

خامساً:- تذكرنا هذه القصة بما صنعه "ديكـــارت" مـــن الفصل الحاسم بين النفس و الجسم معتبراً هـــذا الأخير من العالم الخارجى .

و حين استشعر "ديكارت" التـــورط فـــى هـــذه الثنائية حاول أن يربط بينهما من جديـــد عـــن طريق الغدة الصوبرية التى هى مركز التـــأثير

القائم بين النفس و الجسم. و لكن هذه المحاولة لا تنهضَ بحل الأشكال الوارد عليه. فأن هذه الغدة ليست كشفاً علياً متفقاً عليه.

و هى عند "ديكارت" جزء من الجسم الإنسانى حدد موقعه فى مؤخرة المخ، و لكنه لم يحدد طبيعتها تحديداً دقيقاً و لم يلقى الضوء على وظيفتها بشكل مقنع.

سادساً:- أن فكرة استقلال النفس عن البدن و اعتبارها هى الكيان الإنسانى على الحقيقة ليست جديدة كما قد يظن فقد سبقه إليها القديس "أوغسطين". و حين ذكر له ذلك عبر عن فخره و اعتزازه بموافقته للقديس، و لكنه أكد أنه لم يطلع على رأيه و أنها مجرد مصادفة.

و لكن احتمال المصادفة بعيد فيما نود الإشـــارة إليه هنا.

فنحن نريد أن نقرر أن بـــن سـيـنا قـد سـبق "ديكارت" أيضاً إلى هذه الفكرة و ركز عليها فى أكثر من موضع من كتبه و من المعـــروف أن الكتب الصينية قد ترجمت إلى عدد من اللغـــات الأوربية قبل "ديكارت" بعهد غير قصير.

فأغلب الظن أن يكون "ديكارت" قد قـــرأ هــذه الفكرة فى أحد هذه الكتب أو قرأها فـــى كتـــاب آخر متأثر بهذه الكتب أى قد تأثر فـــى فكرتـــه بالشيخ الرئيس بشكل مباشر أو غير مباشر.

و نختار الآن من عبارات الفيلسوف العربى ما يتمثل هــذا السبق أو هذا التأثير .

يقول أبن سينا فى الإشارات (تنبيه) تحصل أن المـــدرك منك هو ما يدركه بصَرك من أهابك لا فأنك أن انســلخت عنه و تبدل عليك كنت أنت أو هو ما تدركه بلمسك.

و ليس أيضاً إلا من ظواهر أعضائك لا فأن حالـــها مـــا سلف، و مع ذلك فقد كنا فى الوجه الأول من الفـــروض أغفلنا الحواس عن أفعالها.

فتبين أنه ليس مدركك حينئذ عضواً من أعضائك كـــالقلب أو الدماغ.

و كيف يخفى عليك وجودها من حيث هى جمله، و ذلـــك ظاهر لك مما تمنحه من نفسك، و يا يبعث عليه.
فمدركك شىء آخر غير هذه الأشياء التى قد لا تدركـــها و أنت مدرك لذاتك و التى لا تجدها ضروريـــة فـــى أن تكون أنت.

فمدركك ليس من عداد ما تدركه حساً بوجه من الوجـــوه و لا مما يشبه الحس مما سنذكره[1].

و يقول فى برهان (الرجل الطائر) و هو أحـــد براهينـــه على وجود النفس و استقلالها.

يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعه و خلق كـــاملاً، و لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات و خلق يهوى فى هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدمـــاً يحوجه إلى أى يحس و فرق بين أعضائه فلم تتلاقى و لـم نتماس، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشـــك فـــى إثباته لذاته موجوداً، و لا يثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه و لا باطناً من أحشائه و لا قلباً و لا دماغاً و لا شيئاً مـــن الأشياء من خارج، بل كان يثبت لها طولاً و لا عرضـــاً و لا عقما و لو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يـــداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته و لا شرط فى ذاته.

---

[1] القسم الثانى ص ٣١٠ إلى ص ٣١٣.

و أنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت و المقر به غير الذى لم يقر به.

فأذن للذات التى أثبت وجودها خاصية لها، على أنها هو بعينه غير جسمه و أعضائه التى لم يثبت[1].

على أن للإمام الغزالى أيضاً إشارات كثيرة إلى فكرة استقلال النفس عن البدن و هو أمر لاحظه الدكتور محمود حمدى زقزوق مثبتاً به سبق الغزالى على "ديكارت" فى هذه النقطة الهامة من فلسفته[2].

---

[1] فى الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيقه للدكتور إبراهيم مدكور ص ١٤٢.

[2] المنهج الفلسفى بين الغزالى و ديكارت ص ١١٣ .

سابعاً:- فإذا تجاوزنا حديث "ديكارت" عن النفس إلى حديثه عن النفس إلى حديثة عن المادة فان خير ما يشار إليه فى هذا الحديث تقريره أن الامتداد هو خاصية المادة كما أن الفكر هو خاصية النفس.

و لكن "ديكارت" مسبوق أيضاً فى هذه النقطة بما ذكرة فلاسفة الإسلام.

و من هذا القبيل ما يقرره "ابن طفيل" فى حى بن يقظان حيث يقول (فنظر هل يجد وصفاً واحداً يهم جميع الأجسام حييها و جمادها فلم يجد شيئاً يهم الأجسام كلها إلا معنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الأفطار الثلاثه التى يعبر عنها بالطول و العرض و العمق فعلم أن هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم)[1].

---

[1] فلسفة بن طفيل و رسالته حى بن يقظان ص ٩٠.

ثامناً:- و كما لاحظنا تأثر "ديكارت" بالفلاسفة المسلمين و كذلك نلاحظ تأثره بفلاسفة الإغريق فى مواضع كثيرة.

ففكرة الروح الحيوانية التى افترضها و اعتبرها المهندس المشرف على الجوارح و الأعضاء منقولة عن "جالينوس" أو "أبقراط".

كما أن فكرة ارتباط الإدراك بأخلاق تذكرنا بكلمة سقراط الخالدة (الفضيلة المعرفة) و من شواهد تأثر الفيلسوف الفرنسى بأرسطو ما يذكره أستاذنا الدكتور بيصار فى قوله (أن رأيه فى كل من شقى الوجود المادة والعقل يكاد يرجع إلى رأى قديم للفيلسوف اليونانى "أرسطو" فى الهيولى و الصورة أو المادة و العقل فكما بنى "أرسطو" فلسفته على ثنائية الوجود المتردد بين عنصرين أساسين

هما الهيولى و الصورة أو المادة و العقل أو القوة و الفعل بنى "ديكارت" تفسيره للكون على القول بعنصرى المـــادة و العقل إلى أن يقول و حتى فكرة "ديكارت" التـــى تقـــوم على أن الامتداد و المكان مترادفان و على التناقض فـــى القول بأن هذا مكان خال ما يؤدى بإنكاره بوجود الخـــلاء فأنها كذلك ترجع إلى مذهب "أرسطو" فـــى القـــرن بـــأن الخلاء معدوم فى تحديد للمكان بأنه (السطح الباطن مـــن الجسم الحاوى المماس للســـطح الظـــاهر مـــن الجســـم المحوى)[1].

تاسعاً:- و مهما يكن من مواضع النقد فلقد كان "ديكـــارت" نقطه مضيئة فى تاريخ الفكر الفرنسى خاصـــــة و الفكر الأوربى بوجه عام .

---

[1] تأملات فى الفلسفة الحديثة ص ٩١ الى ص ٩٢ .

لقد قام الفيلسوف الألمانى "هيجل" للفكر الفرنسى "فيكتو كُوزان" ذات يوم (لقد عملت أمتكم للفلسفة عملاً جليلاً حين أعطتها "ديكارت")[1].

كما كان لديكارت كثير من التلاميذ فى البيئة الفلسفية نقلوا عنه و تأثروا به.

و أبرز هؤلاء "أسيبنوزا" و "ليبنتز" الذى يقول عنه (عندى أن الإنسانية قد خسرت خسارة جلى من العسير أن نجد عنها عوضاً).

و إذا كنا قد ظفرنا منذ الحين برجال عظماء قد فاقوا مسيو "ديكارت" فى بعض المسائل فأنى لا أعرف له كفئاً فى شمول نظرته و فى ما أقترن بها من عمق و نقاد كبيرين[2].

---

[1] الدكتور عثمان أمين "ديكارت" ص ٢١.

[2] الدكتور عثمان أمين "ديكارت" ص ٦٣ "ديكارت".

الفصل الرابع

المدرسة الديكارتية

اسبينوزا

حياته و فلسفته

المدرسة الديكارتية

من المعروف أن "رينيه ديكارت" لم يفكر قط فى احتراف مهمته التعليم لأفكاره الفلسفية فى مدرسه أو جامعه رغم مكانتها السامية ومنزلتها العالية ذلكم إن مهنة التعليم هى الرسالة النبيلة و الغاية العظيمة من بعثة الأنبياء فما من نبى إلا وقد قام بهذه المهنة الشريفة فعلم قومه و هداهم بنور تعاليمه و علمه إلى طريق الهداية و الرشاد نقول: إن "ديكارت" لم يشغل نفسه بهذه المهنة - رغم خطورتها و لم يتخذ جامعة لتكون منطلقا لنشر أفكاره والتفاف الرواد و التلاميذ حوله و حول مبادئه - فإن فلسفته قد انتشرت انتشاراً رائعاً و أدت إلى ظهور مدرسة فكرية تسير على نهجه العقلى و قد ضمت هذه المدرسة فى رحابها و تحت ظلالها - العديد من الأسماء اللامعة من قادة الفكر و رواد التفكير الفلسفى الحديث فى مختلف البلاد الأوربية، و من أشهر الفلاسفة الذين تأثروا بمنهجه

و ساروا على ضوء فكره.

"مالبرانش" فى فرنسا ، و "اسبينوزا" فى هولندا و "ليبنتز" فى ألمانيا.

و لم يكن رجال هذه المدرسة مجرد ناقلين أو مقلدين لفلسفة "ديكارت" فقط، بل كانت لهم شخصيات المتميزة و أفكارهم المستقلة، و كانت لهم وجهات نظر فى الأفكار التى عرضها "ديكارت" و بخاصة نظريته فى الجوهرة و ما ترتب عليها من نتائج.

فقد كانت هذه النظرية و ما اشتملت عليه من ثنائية حادة دافعا لهؤلاء الفلاسفة إما لتعليمها أو الإضافة إليها أو إعادة صياغتها من جديد حتى و لو أدى الأمر إلى الخروج عن الثنائية الديكارتية.

و سوف نتحدث عن واحد من الفلاسفة الكبار الذين كـــان لهم أثر كبير علىَ الفكر البشرى كله و أعنى به الفيلسوف "اسبيتوزا".

فهو فيلسوف اليهود غير منازع فـــى التـــاريخ الحديـــث و نقطة الاتصال بين موسى بن سيمون و "ديكـــارت" و ملتقى الروحية التى تعنى بالحب و السعادة الحقة و العقلية التى تبحث من العلة و السبب و الدليل و البرهـــان، و لا نظن أن هاتين النزعتين المتقابلتين اجتمعنا لدى فيلســوف من المحدثين اجتماعهما لديه فهو بهذا يذكرنا بــأفلاطون و الفارابى أكثر مما يذكرنا ببعض معاصريه الأقربين نشأ نشأة دينية تغلغلت فى نفسه و تمكنت من قلبه ثم أنتقل إلى الأبحاث الرياضية و الدراسات العقلية فـــأراد أن يضـــم هذين الطرفيين و يوفق بين هذين الجانبين، و حرص فـــى أن يبنى صرح قاعدته البرهنة و الاستدلال و قمته نـــور اليقين و غبطة العرفان فجاءت فلسفته عقلية روحية فـــى

أصولها و مبادئها دينية صوفية فى غايتـــها و مرســاها و اتصلت حياته و تربيته بتعاليمه و آرائه تمام الاتصـــال[1] و سوف نتعرض لحياته و فلسفته فيما يلى:-

[1] ص ١٤٠ - ١٤١ قصة الفلسفة الحديثـــة و ص ٢٢٤ دراســـات فى الفلسفة الحديثة . د / محمود زقزوق .

اسبينوزا

و لد بالروح "اسبينوزا" في مدينه امستردام فى ٢٤ مـــــن نوفمبر عام ١٦٣٢مز من أسرة برتغالية - يهودية، هربت من الاضطهاد إلى هولندا التى كانت ملجأ للمضطـــــهدين آنذاك.

ثقافته:- نشأ منذ الصغر محٰباً للعلم و المعرفـــة، و كـــان و والده حبراً من أحبار اليهود.

١ - درس الديانة اليهودية و الفلسفة اليهوديــــة التى خلفها اليهود فى الأندلس و هـــذه الفلســفة كانت متأثرة بالفلســـفة الإســـلامية فـــى بـــلاد الأندلس.

٢ - تعلم اللغة الإسلامية و درس الفكر الأوربى قديمه و وســـيطة و حديثـــة و خاصـــة فلســـفة "ديكارت".

٣ - عمل على توحيد الثنائية التـــى قـــال بـــها "ديكارت".

٤ - و فى الثالثة و العشرين من عمره أصـــدر آباء الطائفة اليهودية الحكـــم عليـــه بحرمانـــه و كفره و طرده من البلاد، و جـــرت محاولـــة لقتله من أحد خصومه مما جعله يفر هارباً إلـــى ضواحى المدينة و تغيير اسمه حتى ينجو مـــن القتل.

٥ - و فى عام ١٦٦٠م ذهب إلى مدينة لاهـــاى نزولاً على رغبة بعض أصدقائه حيـــث توفـــى هناك بعد أصابته بمرض صـــدرى فـــى عـــام ١٦٧٧م عـــن عمـــر لا يتجـــاوز الرابعـــة و الأربعين.

و كانت أفكاره عميقة و دقيقة و غامضة لذا قال هيجل: (لـــن تكـــون فيلســـوفا إلا إذا درســـت "اسبينوزا"...).

مؤلفاته:- كان "اسبيوزا" لا يبيح بأفكاره إلا لمن يثق فى قوة أخلاقه و يتصف بقوة الفهم و الإدراك و لذلك لم تنشر مؤلفاته إلا بعد وفاته...و هى:-

١ - مبادئ الفلسفة الديكارتية و كان قد أملاه على أحد الشباب الذى رغب فى[١] تعلم الفلسفة على يديه و نشر هذا الكتاب عام ١٦٦٣م.

٢ - رسالة في اللاهوت (الدين اليهودى) و السياسة، و وضح فى هذه الرسالة أن الاشتغال بالفلسفة لا يمثل خطراً على الدين و لا على أمن الدولة، و نشرت هذه الرسالة فى علم ١٦٦٥م.

٣ - رسالة فى الأخلاق: مؤيدة بالبرهان الهندسى ووضح فيها: مصدر الانفعالات النفسية

---

[١] ص ٣١ و ما بعدها . د / مبارك حسن حسين : محاضرات فى الفلسفة الحديثة.

و طبيعتها، و قوة العاطفة و قوة العقل و الحرية الإنسانية و حدودها.

٤ - رسالة في السياسة: و تكلم فيها عن النظـام الذى ينبغى أن يكون عليه المجتمع و ينعم فيـها بالحرية و الأمن و السلام.

٥ - رسالة في إصلاح العقل: و بين فـي هـذه الرسالة المنهج الذى يؤدى بطريقة مثلـى إلـى معرفة الأشياء معرفة حقيقية.

٦ - مراسلات العلماء و المفكريـن و الـردود عليها.

٧ - رسالة في قواعد النحو العبرى.

٨ - رسالة عن (الله) و الإنسان و سعادته بالغـة اللاتينية نشرت بعد وفاته.

فلسفته:- تدور فلسفة "اسبيوزا" حــــول قضيـــة (وحــــدة الوجود) و قد وضحها بادئ ذى بدء بما يأتى:-

أولاً: تكلم عن "الله" و الطبيعة.

ثانياً: تكلم عن "المفهوم" الجوهر و العــــرض و ماذا يقصد بهما "اسبينوزا"؟

ثالثاً: تكلم عــــن خلــق الإنســـان و حريتـــه و اختياره.

رابعاً: تكلم عن أنواع المعارف و حصرها فــــى أربعة أنواع.

خامساً: النظرية السياسية و الديمقراطية.

سادساً: "اسبينوزا" فى الميزان العلمى.

أولاً: الله و الطبيعة

عرفنا فيما سبق أن " ديكارت" قد ذهب إلى القول بوجود جوهرين متباينين و هما: الجوهر المادى و الجوهر العقلى.

و الجوهر العقلى أما يكون متناهياً و هو العقل أو النفس الإنسانية. و أما أن يكون غير متناه و هو الله.

أما "اسبينوزا" فقد قال بوجود جوهر واحد يمثل الجوهرين (الطبيعة و الله).

قال: إذا نظرنا إلى الجوهر الواحد من الخارج كانت الطبيعة و إذا نظرنا إلية من الداخل كان الله، هذه نظرية وحدة الوجود عند "اسبينوزا" و هذه النظرية تمتد جذورها التاريخية إلى الفيلسوف اليونانى "بارمنيدس" (٥٤٠ ق.م) حيث قال "بارمنيدس" بوجود جوهر واحد و سماه الوجود المحض و منشئ الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا فى الفكر

الفلسفى اليونانى و هو يمثل الوجود الطبيعى و الوجـــود الميتافيزيقى، بمعنى أن الوجود واحد إذا نظرنا إليه مـــن الداخل كان الوجود الميتافيزيقى.

و نظرية وحدة الوجود باطلة لما يأتى:

أولاً: تتنافى مع الديانات السماوية التى تنزه الألوهية عـن الوجود المادى الطبيعى.

ثانياً: أن ثمة فرق بين الرب الخـالق و بيـن الإنسـان المخلوق فكيف يطلق على الخـالق و المخلـوق مفهوم واحد و هو وحدة الوجود؟

ثالثاً: القول بهذه النظرية يؤدى إلى القول بنظرية الحلـول الباطلة.

رابعاً: القول بها أيضاً يؤدى إلـى التشـبيه و التجسـيم للألوهية و التشبيه و التجسيم أحد عقـائد اليـهود الباطلة.

خامساً: أن القول بوحدة الوجود يؤدى إلى القـــول بـــأن العالم لم يخلق و يوجد من العدم و إنمـــا وجـــوده منبثق عن الله و موته أو عدمه فناؤه و حلوله فـــى الله....

الجوهر:

مفهوم الجوهر عند "اسبينوزا" هو الحقيقة الواحدة للاوجود اللا متناهى (الله) ثم قال: و يمكن تعريف الجوهر بأنـــه: (ما هو فى ذاته و متصور بذاته) أى معناه: غير مفتقـــر لمعنى شيء آخر يكون منه، ووصفه بأنه: علة ذاته يستمد وجوده من ذاته.

و إذا كان مفهوم الجوهر هكذا عند "اسبينوزا" فانه يساوى و يضاهى مفهوم (الله) و فى الوقت ذاته أيضـــاً يســـاوى مفهوم الطبيعة و هكذا نجد المعادلة التالية فى بداية أفكـــار "اسبينوزا": الجوهر = الله = الطبيعة.

هذا هو مفهوم الجوهر عند "اسبينوزا".

أما نحن المسلمين: فلا يجوز فى عقيدتنا أن نطلق كلمة الجوهر على الله - تعالى - لأنه لو كان جوهراً لكان متحيزاً فى مكان و زمان و كان مفتقراً إليهما.

و الافتقار علامة الاحتياج إليهما فيكون ناقصاً بذاته كاملا بغيرة و هذا يتنافس مع كمال الله و جلاله...

و أيضاً: لو كان الله جوهراً لكان جسماً و الجسمية محالة على الله - تعالى- لأنه لو كان جسماً لكان مركباً من أجزاء، و كان محتاجاً إلى كل أجزائه التى ركب منها الجسم فيلزم الحدوث المحال على الله - تعالى-.

العرض عند اسبينوزا

يحدث "اسبينوزا" عن مفهوم العرض فيرى أنه : كل مـــالا يستمد وجوده من ذاته و إنما وجـــودة مشـــروط بغـــيرة ......أى هو ما يتقوم بشىء آخر و يتصور وجودة بـــهذا الشىء.

و يمكن القول بأن الأغراض تتمثل فى عـــالم الظواهـــر المتناهية و فى الاستعمال اللغـــوى يســـمى هـــذا العـــالم بالطبيعة.

ثم يفسر "اسبينوزا" الطبيعة بتفسيرين:

١ - الطبيعة بالمعنى الشامل يطلق عليها إصـــلاح اسم الطبيعة الطابعة أو الخالقة يعنى الوجود العـــام للعالم.

٢ – الطبيعة بوصفها مفـــهوماً شــاملاً للأشـــياء المتناهيةَ و يطلق عليها اسم الطبيعة المطبوعـــة أو المخلوقة.

و **الخلاصــــة**: أن الجوهر عند "اسبينوزا" هو من ناحيـــة الطبيعة الطابعة... هو مصدر الصفـلت أو الأعراض.

و **من ناحية أخرى**: الطبيعة المطبوعة من حيث هو هـــذه الصفات و الأعراض .

و **الأعــــراض**: التى تتمثل فى عالم الظواهر المتناهيـــة فتقوم بغيرها، و أن وجودهــا مشـــرط بشىء آخر غيرها.

و هنا يتوجه السؤال الآتى "لاسبينوزا": (ما هـــو الشـــىء الآخر الذى يتقوم به العرض؟)، و للإجابـــة عـــن هـــذا

السؤال يستخدم "اسبينوزا" فى عرض فكرته المثال التالى: لتوضيح مفاهيمه الأساسية فقال: " ليتصور المرء الجوهر اللا متناهى ممثلاً بسطح كبير أو مساحة عظيمة لا يمكن حدها بمقياس من المقاييس، و لتقريب ذلك إلى الأذهان يمكن تصور هذا السطح الكبير فى شكل قطعاً لا محدودة من الورق فالأعراض تطابق هنا الأشياء الفردية أو الأشكال التى يمكن رسمها على سطح هذه القطعة من الورق.

فإذا قمنا مثلاً بتقسيم هذا السطح إلى مربعات صغيرة تملا السطح المذكور، ثم نظرنا إلى مربع معين من بينها، و سألنا عن الشىء الذى يتوقف عليه وجود هذا المربع فإذا تكون الإجابة؟

الإجابة تتمثل فى أ، وجود هذا المربع المعين مشروط بوجود المربعات المجاورة المحيطة به، و نحن هنا لا

تقول أن وجوده مشروط بالسطح كله، على الأقـل ليـس بطريق مباشر. فمن الطبيعى أن هذا المربع لـن يكـون موجود إذا لم يكن هذا السطح قبل ذلك موجودا.

و طبقاً لذلك يقول "اسبينوزا": إن وجود كل شـىء مـن الأشياء المتناهية محدد باستمرار بوجود أشـياء أخـرى متناهية،فليس هناك أذن شىء متناه يكـون "الله" بطريـق مباشر هو علته.

إن "اسبينوزا": قد جرى وراء الخيال الفلسفى إلـى أبعـد حدوده فى وجود الأعراض المتعلق وجودها بوجود شـىء آخر هو من جنسه، أو بمعنى آخر هو متناه مثله و هـو سابق فى وجوده على وجود العرض.

كما يؤخذ على "اسبينوزا": أن علة الوجـود للأعـراض و الجواهر المتناهية ليس الله - تعالى - مباشرة بل جعـل

بين وجود الجواهر و الأعراض و الله - تعالى - وجـــود واسطة و هو الأعراض المتناهية...

فاسبينوزا مثل سائر الفلاسفة الإغريق القائلين: أن الوجود الكون بالواسطة و ليس وجودة مباشرة عن الله - تعالى -
...

الإنسان و الحرية:

يرى "اسبينوزا" أن الإنســـان لا يتكـــون مـــن جوهريـــن منفصلين: الجسم و النفس كما هو الحال عند "ديكـــارت"- و إنما الجسم و النفس جانبان لكائن واحد.
و هذا الكائن إذا نظر إلية من الداخل كان فكراً - أى عقلاً - و إذا نظر إليه من الخارج كان مادة - أى جسماً.

و الإنسان باعتباره كائن واحد يسعى لتأكيد وجودة، و هذا أمر يتلائم مع طبيعته، و أيضاً الإنسان مثـــل أى كـــائن

يصطدم بالضرورة - أثناء سعيه - مع غيرة من الكائنات الأخرى، و هنا يكون من ناحية فاعلاً يؤثر في هذه الكائنات،و من ناحية أخرى يكون منفعلاً تؤثر هي فيه. فإذا بلغ الإنسان تأكيد ذاته و تحقيقها نشأ عن ذلك الشعور بالسرور أما إذا وقف في طريقه عائق من العوائق فأنه يترتب على ذلك الشعور بالحزن و كل الأعمال الإنسانية، و كل العواطف التي تربط الإنسان بما يحيط به من كائنات تتم وفق ضرورة طبيعية و منطقية صارمة.

فضرورة البقاء تقرر الغريزة، و الغريزة تقرر الرغبة، و الرغبة تقرر الفكر و العمل و ليس في العقل إرادة مطلقة أو حرة لكي يحقق رغباته و إنما هناك سبب يسير العقل في إرادة تحقيق هذه الرغبات، و هذا السبب يسيره

سبب آخر، و هكذا دواليك تتسلسل الأسباب إلـــى مـــا لا نهاية[1].

إذن فليس للإنسان حرية إرادة و اختيار لها كمـــا يقـــرر "اسبينوزا" و إنما يعيش الإنســـان وفـــق قوانيـــن حتميـــة و ضرورية يخضع لها الإنسان فى الحصول على رغباته و إشباع غرائزه و عواطفه.

و يضرب لذلك "اسبينوزا" مثلاً فيقول: "إن الإنسان الـــذى يتخيل أنه يستطيع أن يختار و أن يقرر ما يشاء فى حرية يشبه الحجر الذى قذف به فى الهواء فهذا الحجر لو وهب شىء من الإدراك لاعتقد أثناء رميه و سيره فى الفضـــاء أنه هو نفسه الذى يحدد المسار الذى يسير فيه و يختـــار مكان و زمان سقوطه على الأرض".

---

[1] قصة الفلسفة الحديثة ج١ - ص ١١١ - د / زكى نجيـــب محمـــود، أحمد أمين.

إذن كل الأفعال الإنسانية على حد رأى "اسبينوزا" تتم وفقاً للقوانين الضرورية التى تمليها طبيعة الوجـود ووصـف هذا القانون بالشمول و الثبات الذى يسير عليه الكون كلـه تبعاً له.

المسئولية: إذا كان "اسبينوزا" يقرر فى وضوح تـام أن الإنسان مجبر ليس حراً مختاراً فى أفعالـه فأنه يناقض نفسه و يقرر مسئولية الإنسـان عن أعماله حيث يقول: "و لكن عدم وجـود إرادة حرة لا يعنى إطلاقاً عـدم مسـئولية المرء عن أفعاله فخشينا من الشر الناشئ من الأفعال الشريرة لا ينبغى أن يقلل منها أنـه شر ناشئ بالضرورة فسواء كان فعلنا حـراً أم لا فأن الأسباب المحركة لدينا تتمثل فـى الأمل و الخوف، و لهذا فأن الإدعاء بأنى لم أدع مكاناً للوصايا و الأوامر ادعاء خاطئ".

السعادة عند اسبينوزا

يرى "اسبينوزا" ،أنها تحصيل اللذة و انتفاء الألم و أنـها لا تتحقق إلا إذا اصبح الإنسان فاضلا ، و لا يحصل علـى الفضيلة إلا إذا كان قادراً على السعى للوصول لمـا فيـه حفظ بقائه و تأكيد ذاته.

و سعى الإنسان هذا نحو تحقيق ذاته و منفعته يكون علـى بصيرة من عقله و الإنسان العاقل يسعى لتحصيل المعرفة ، فإذا ما وصل إلى المعرفة فإنه يكون قد وصـل إلـى الفضيلة و يقصد بالمعرفة: معرفة الله حيث قال:

(إن خير الذهن الأعلى هو معرفة الله و أعلـى فضيلـة للذهن هى أن يعرف الله)[1].

---

[1] تاريخ الفلسفة الغربية ج ٣ ص ١٢٦.

وبهذا الرأى فى نظرية السعادة: يذكرنا "اسبنيوزا" بـــرأى سقراط الفيلسوف الإغريقى الذى ربـــط بيـــن الفضيلـــة و العلم...

فالإنسان الفاضل عند سقراط "هو الإنسان المتعلم والمتعلم هو الإنسان يعرف أى يعلم"[1]

[1] قصة الحضارة "ول ديورانت" ص ٢٢١-٢٢٣.

أنواع المعارف عند اسبينوزا

يرى "اسبنيوزا": أن المعارف أربعة أنواع:ـــ

١ ـــ المعرفة السماعية:

و هى التى تأتينا عن طريق السماع مثل معرفتنـــــا بتاريخ ميلادنا و هذه المعرفة غير علمية.

٢ ـــ المعرفة التأثيرية:

و هى المعرفة التى تأتينا عـــن طريـــق الخـــبرات الغامضة الناقصة.

كأن يعرف الطبيب علاجاً عن طريق التأثير العـــام بنجاح هذا العلاج فى شـــــفاء المريـــض ،و لكـــن الطبيب لم يتوصل إلى هذا العـــلاج عـــن طريـــق التجارب العلمية القاطعة.

٣ ــ المعرفة الاستدلالية:

و هى المعرفة التى نستنتج فيها شيئا من شئ آخـــر مثل استنتاج العلة من المعلول أو هى معرفة نقـــوم فيها بتطبيق قاعدة كلية على حالة جزئية.

و هذه المعرفة أرقى من النوعين السابقين و لكنـــها لا تفيد اليقين العلمى وظيفتها احتمالية قابلة للتغـــير و التبديل.

٤ ــ المعرفة الحدسية:

و هى المعرفة التى يدرك فيها الشىء بماهيتـــه أو بعلته القريبة مثل أن الخطيـــن المتوازييـــن لثـــالث متوازيان.

و هذا النوع من المعرفة يوصلنـــا إلـــى المعرفـــة الكاملة اليقينية حيث تقدم لنا الأفكار الحقيقيـــة لأن

وسيلتها العقل الإنسانى الذى يـدرك الأشـياء فـى صورة الأبدية و معنى الـلا متنـاهى أو الجوهـر المطاق (الله)[1].

من سرد و حصر "اسـبينوزا" الأنـواع المعـارف و اختيار النوع الرابع منها يعطينا الضوء الواضـح على أن "اسبينوزا" عقلياً و أن فكـرة كـان عقليـاً صرفاً و هذا يتفق مع نزعته العقلية الواضحة التـى تأثر فيها بـ "ديكارت" مؤسس المذهب العقلى فـى الفلسفة الحديثة...

[1] تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٠٥ و قصة الحضارة "لول ديورانت" ص ٢١٠.

النظرية السياسية لدى اسبينوزا

١ - كتب "اسبينوزا" فى آخر حياته رسالته السياسية وضح فيها معالم الحرية السياسية و بين الأسس التى ينبغى أن تقوم عليها الدولة و انتهى إلى أن نظام الحكم الديمقراطى هو أفضل نظام للمجتمع البشرى.

يقول "اسبينوزا": أن الناس قبل نشأة المجتمع كانوا يعيشون فى فوضى عارمة حيث يأكل القوى منهم الضعيف و الغابة لصاحب القوة و القوة هى التى توصل الإنسان إلى الحق و الإنسان لا ينظر إلا إلى مصلحته و منفعته و يسود الناس مذهب المنفعة الشخصية فلا توجد روابط بين الأفراد بعضهم ببعض فى داخل المجتمع الواحد فيتولد عند الناس حب الذات و الأنانية و الجشع فلا ضوابط للإنسان و لا معايير خلقية تمنعه من السيطرة على الغير ما دام قوياً.

و لكن هذه الحياة لا تدوم طويلاً حيث لا فرق بين العـــدل و الظلم و الحق و البـــاطل لانعـــدام المقـــاييس الدينيـــة و الأخلاقية التى تضع حداً فاصلاً بين العـــدل و الظلـــم و الحق و الباطل و من ثم مال الناس إلى تكوين المجتمـــع على أساس المساواة و الحرية من ناحية، و مـــن ناحيـــة أخرى قد دفع الناس إلى تكوين المجتمع شعورهم بالحاجة إلى التعاون على جلب المنافع و درأ المفاسد و الأخطـــار. إذ لم يستطع الفرد وحده أن يدفع عن نفسه كل مـــا كـــان يهدد من أخطار و أن يحصل فى الوقـــت نفســـه علـــى ضرورات الحياة.

لهذا رضى الإنسان حينما قبـــل أن يكـــون عضـــواً فـــى المجتمع أن ينال عن بعض قوته و أن يتنازل عن بعـــض حقوقه للأخريين.

و الإنسان الحر عند "اسبينوزا" هو الذى يستخدم قوته فى اكتساب مصلحته بشرط إلا يتعدى على حرية الآخرين التى ينبغى أن تكون مساوية لحريته.

و بذلك يكون الفرد قد أعطى للجماعة جزءاً من قوته الطبيعية فى مقابل أن تمكنه الجماعة من استغلال ما بقى لمن القوة إلى أقصى حد مستطاع، دون أن يخشى على نفسه خطراً و اعتداءاً من الآخرين.

و المجتمع يضمن للأفراد الطمأنينة و الأمن و السلام بالقوانين التى يسنها يقول "اسبينوزا":
"أن أساس المجتمع نظام خفى كامن وراء نزعات الأفراد المتضاربة فى الظاهر، فالدولة الكاملة ينبغى أن لا تحد من قوة الفرد إلا بمقدار ما تتقى به خطر هذا الفرد على

بنائها و كيانها، و هى فى الوقت نفسه يجب أن لا تـــنزع من الأفراد حرية إلا إذا أضافت إليهم أكبر ما انتزعت"[1].

و يرى "اسبينوزا": أن السلطة يجب أن تكـــون فـــى يـــد المجتمع، و يحذر من أن توضع السلطة فى يد رجل واحد لأن ذلك معناه الحكم الأرستقراطى أى الفردى الاستبدادى و يرى أن الديمقراطية خير أنواع الحكومة ففى ظلها يجد الأفراد مجال العمل بشتى أنواعه و طرقه سهلاً ميسراً ما دام الفرد حراً طليقاً فتيسر له الحياة الديمقراطيـــة ســبل العيش و الأمن و الاستقرار فينطلق الفرد يعمـــل لزيـــادة الإنتاج الذى يضمن له الرقى و التقدم نحو الكمال المنشود فى هذه الحياة.

[1] قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١١٦، د/زكى نجيب محمود، أحمـــد أمين.

و يرى "اسبينوزا": أن الديمقراطية السياسية إذا دخل فيها السوقه و احتلواً مراكز القوة فأنها تكون وبالاً و خطراً يفسد نظام الحكم لأن السوقة تنقصهم الدراية الواسعة و الكتابة الممتازة و الشجاعة الخالصة فى تدبير شئون المجتمع و تنظيم حياته السياسية على الوجه الذى يربح أفراده و إلا تتحول الديمقراطية إلى أرستقراطية و استبداد[1].

[1] قصة الفلسفة الحديثة ج١ص١١٥، ص ١١٦. د/ زكى نجيب محمود و أحمد أمين.

اسبينوزا فى الميزان العلمى

إذا أردنا أن نقيم "اسبينوزا" فى فلسفته يجدر بنا أن نكـــون على حيده علميه خالصه.

أولاً: إن فلسفه "اسبينوزا" كانت غامضة و دقيقة و صعبة المنال ...و ربما قصد من وراء هذا عدم اكتشـــاف أهدافه فى فلسفته حتى لا يضار بالطرد ووصمـــــه بالكفر و الزندقة.

ثانياً: أن فلسفته كانت بغض أو مقتاً شديدين من جـــانب أعدائه و خاصة رجال الدين لقوله (بنظرية وحـــدة الوجود).

ثالثاً: فلسفته ظلت فى طى الخفاء و الكتمان أثناء حياته و بعد مماته ما يقرب من قرن كامل حتى أصبحت فى عالم النسيان.

و ظل الحال حتى جاء الشاعر الألمانى "ليسنج" فأشاد لـ ا"سبينوزا" شهرته و ذكره و من ذلك الوقت أخذ "اسبينوزا" مكانه اللائق به فى تاريخ الفكر الفلسفى الحديث فتأثر بفلسفته العديد من الفلاسفة و المفكرين فى كل أنحاء أوربا و أقيم له تمثال فى مدينة (لاهاى) فى عام ١٨٨٢م بعد وفاته بأكثر من قرن من الزمان.

رابعاً: أن "اسبينوزا" يرى أن العالم قديم و هو صورة لوجود الله الظاهرية.

خامساً: يرى أن الإنسان ليس حــــراً و لا مختــاراً فـــى أعماله و مع ذلك فأنه مسئول عن أعمالـــه و هــذا تناقض عجيب من "اسبينوزا" فكيف يكون الإنســـان مسئولاً عما يصدر عنه من أفعال و هو ليس حـــراً فيها أو ليس له مدخليه فى أعماله بالفعل أو بالقول؟

سادساً: أن "اسبينوزا" كان محقاً فيما يراه من القول فـــى نظام الحكم القائم علــــى الديمقراطيـــة و الحريـــة السياسية التى تكفل للأفراد الأمن و الاستقرار.

التوفيق بين الدين و الفلسفة

أراد "اسبينوزا" أن يوفق بين الدين و بين الفلسفة، و في رأيه أن الفلسفة تؤدى إلى يقين عقلى رياضى مؤسس على الأفكار الجلية الواضحة و أما الدين فأنه يوصل إلى يقين نقلى أخلاقى أساسه الطاعة و الخضوع.

و بما أن الجماهير ذوى العقلية الساذجة لا تستطيع إن تدرك الأشياء دائماً إدراكا جلياً واضحاً فلابد من الوحى يأخذ بيدها إلى الطريق القويم و تسير وراءه و لابد من كتب سماوية تهتدى بهديها، فالدين يوضح ما يكشفه العقل و العلم على صورة أخرى كما يعبر عن قوانين الطبيعة فى لغة تتفق مع العامة و ليس من صنع البشر مطلقاً، بل هو تنزيل من حكيم حميد على أفراد امتازوا ببلاغة ساحرة و مخيلة نادرة١.

فوق هذا فالدين و الفلسفة ينشدان غاية واحدة و يسيران وراء هدف مشترك هو سعادة الفرد و المجتمع بل و البشرية جمعاً، و إذا كان كل منها ينتهى إلى ضرب اليقين و يحقق السعادة المرجوة فليس هناك ما يدعو إلى اختلافهما، و ما يعزى إليهما من خلاف لا يرجع بحال إلى طبيعتها، و إنما منشؤه فى الواقع سوء تصرف المشتغلين بهما و ضيق عقولهم و قصر نظرهم.

فإذا كنا نريدها صفاء دائماً و سلماً مستمراً فلنفصل كل واحد منهما عن الآخر، و لنترك للفيلسوف فلسفته و للمتدين عقيدته.

و هذه طريقة جديدة فى التوفيق بين الفلسفة و الدين لم نألفها لدى "ديكارت" و معاصريه، و لا يبعد أن يكون

"اسبينوزا" قد استقاها من ابن رشد بواسطة موســـــى بـــن ميمونات)[1].

[1] دروس في تاريخ الفلسفة ص ١٤٥، إبراهيم مدكور.

الله و الطبيعة

يذهب "سيبنوزا" إلى أن فى الكون حقيقة شـــاملة يســـميها جوهراً.

و ليس يعنى بهذه الكلمة مدلولها المباشر الذى يفهم منـــها وجود مادة الشىء أو عنصره، كقولنا مثـــلاً أن الخشـــب مادة هذا القلم و لكنه يقصد بـــها الحقيقـــة الكائنـــة وراء الأشياء و أما هذه الأشياء التى تقع تحت الحس فـــأعراض زائلة فانية، فأنت و جسدك و أفكارك و عشيرتك ونوعـك الإنسانى و أرضك التى تعيش عليها أن هى إلا أغـــراض زائلة تنم عن حقيقة خالدة كامنة فيها، فقد يزول الشـــىء و يفنى، و لكن الحقيقة التى تتمثل فيه باقيـــة لا تخضـــع لزوال أو فناء.

إن "سيبنوزا" يرى أن للطبيعة أو الكون مظهرين، فـــهى فعالة منشئة خالقة من ناحية و هى منفعلة مخلوقـــة مـــن

ناحية أخرى فأما هذا الجانب المنفعى فهو الدنيـــا و مـــا تحوى من غابات وَ هواء و ماء و جبال و حقول و مـــا إلى هؤلاء من صور حسية لا تقع تحت الحصر، و هـــذه الطبيعة كلها هى من إنتاج الجانب الفعال و خلفــه، و أذن فى الكون قوة تخلق هى ما يســميا "جوهــراً" و بعبـــارة أخرى هى "الله" و فيه أشياء مخلوقة هـــى الأعــراض أو العالم.

من ذلك نرى أن "اسبنوزا " يقســم الكــون إلــى جوهــر و عرض إلى قديم و حادث، إلى الله و العالم المحســوس، أما الجوهر أو الله فهو حقيقة لا مادة لـــها بخـــلاف عـــالم الأشياء. و لتوضح فكرة "اسبينوزا" بهذه الرسالة التالية:- "إنى أتصور الله و الطبيعة فـــى صـــورة تخـــالف كـــل المخالفة الصورة التى يرســمها المســيحيون المتــأخرون المحدثون عادة، إننى أعتقد أن الله هـــو الســبب الكــامن للأشياء كلها.

أنى أزعم أن كل شيء كامن فى الله، و كل شـــيء يحيـا و يتحرك فى الله و أنى متفق فى ذلك مع القديس "بولــس" و من الخطأ الجسيم أن يقول فأنى إننى أريد أن أبين أن الله و الطبيعة شيء واحد و القائلون عنى بذلك يفـــهمون مـــن لفظ الطبيعة كتلة معينة من المادة المجسدة، كلا لست أريـد أن أقول شيئاً كهذا".

إنما يريد "اسبينوزا" أن قوانين الطبيعة و أوامر الله الخالقـة شيء واحد يعينه، و أن كل الأشياء تنشأ عـــن طبيعـــة الله اللانهائية كما ينشأ من طبيعة المثلث أن زوايـــاه الثلاثيـــة تساوى دائرتين أى أن الله بالنسبة إلـــى العـــالم كقوانيـــن الدوائر بالنسبة إلى الدوائر كلها. الله هو القانون الذى تسير وفقه ظواهر الوجود جميعاً بغير استثناء أو شـــذوذ، فـــهذا الكون المجسد من الله بمنزلة الجسر (الكوبرى) من قوانينه الرياضية و الميكانيكية التى بنى على أساسها: إذ القوانيـــن

هى جوهر الجسر و قوامه إن زالت آنذاك الجسـر علـى الأثر.

إن الناس كثيراً ما يخطئون فى فهم فلسفة "اسبينوزا" التـى توحد بين الله و الطبيعة فيذهب بهم الظـن أن "اسـبينوزا" يريد بذلك أن يصغر من شأن الله فينزله إلى مرتبة الطبيعة و الواقع كما يقول هو (أننى فى حقيقة الأمـر لـم اهبـط بمنزلة الإله إلى مستوى الطبيعة، بل رفعت الطبيعة إلـى مستوى الله)[١].

و يقول الدكتور "ولف" فى مقاله الذى كتبه عن "اسـبينوزا" فى دائرة المعارف البريطانية:-
(بدل أن تكون الطبيعة فى ناحيـة و أن يكـون الله فـوق الطبيعة فى ناحية أخرى . فقد ذهب "اسـبينوزا" إلـى أن

[١] ص ٩٩ و ما بعدها: قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين .

للحقيقة عالماً واحداً، هو الطبيعة و الله فى آن واحد، و ليس فى هذا العالم مكان لما فوق الطبيعة).

إن الله علة و لكنه علة نفسه و وسيلة توضيح الكون بأسره، و العلة فى الحقيقة ما به يفهم الشىء. و العالم فى حركته خاضع لقوانين ثابتة هى ثمرة النظام و التنسيق الإلهى، فكل معلول لابد له من علة لأن الضرورة الأزلية تقتضى تلازماً بين الأسباب و مسبباتها، و الكون الذى هو قطعة من الجوهر الأزلى لا يمكن أن يشتمل على شر أو قبح بحال، و ما تتوهمه من شرور و قبائح إنما هى أمور اعتبارية تتغير تبعاً لتغير ظروف الإنسان و البارئ جل جلاله ميزه عن الفرض و الغاية لأنها تستلزم أمراً خارجاً عنه يسعى إلى تحقيقه و أذن لا وجود للعلل الغائبة، و لقد أنكرها "ديكارت" من قبل فى الدائرة الطبيعية و لكن و أحد ممن سبقوا "اسبينوزا" لم يرفضها رفضه و لم يلغها إلغاءه. وأخيراً لا تخالفه الإرادة الإلهية العلم القديم و لا تخرج عن

قوانينه الثابتة و ليس فى هذا ما ينافى الحرية و الاختيـــار،
فأن الحر لا يكونَ كامل الحرية إلا إذا خضع لنفسه فقـــــط
و على هذا يمكننا أن نقر أن الله هو الطبيعة لأنه تصـــــدر
عنه كل الظواهر الكونية و الطبيعة هى الله لأنها مظـــــهر
لأغراضه الأزلية.

وحدة الوجود

لا تظننا فى حاجة إلى أن نلاحظ أنه ينتهى بهذا إلى مذهب وحدة الوجود، و هكذا كل فلسفة تنكـــر الخلــق و تقــول بصدور الأشياء جميعاً عن الله، و ليســـت هــذه الفكــرة بالأولى فى بابها، فقد سبق إليها الروافيون و أفلاطون فـــى التاريخ القديم و بعض رجال القرون الوسطى و فى عصر النهضة و من الممكن جداً أن يكون "اسيبنوزا" استمدها من أحد هذه المصادر، غير أن الجديد لديه هو أنه يحـــاول أن يصوغها فى قالب رياضى و ينظمها نظماً عقليـــاً فيســـلك سبيل البرهنة الرياضية ليثبت أن الله هو الجوهر الوحيـــد و الحقيقة اللانهائية فى حين أن مذهب وحدة الوجود عنـــد معتنقيه جميعاً لا يكاد يخلو من نزعه روحيـــة و عنـــاصر صوفية، و من جهة أخرى يحيل إلينا أن عقيـــدة التوحيـــد الإسرائيلية التى اعتنقها منذ صغره هى التى قادتـــه إليـــه،

فأن الوجود إذا أفرد الله بكل شيء لم يدع للطبيعـــة مكانـــاً بجانبه[1].

[1] ص١٤٦ – ١٤٧ : دروس فى تاريخ الفلسفة.

الفرد و المجتمع

لقد رسم "اسبينوزا" طريق السعادة للفرد و لم يتوقف عند ذلك فقط بل تعداها إلى المجتمع و شئونه لأنه يعتقد أن في تعاون الأفراد ما يحقق كثيراً من أغراضهم، و المجتمع و أن يكن ظاهرة عرضية فقد ساعد على تكوين غرائز جديدة و قواعد نافعة، فهو الذى ولد فينا التراحم و التعاطف و الإحسان و الشفقة و دفعنا إلى التفرقة بين الحق و الباطل و الخير و الشر و هدانا إلى بعض القوانين التى تنظم أحوال الأفراد و الجماعات و لا يستغنى المجتمع عن قادة يدبرون أمره و يشرفون على تطوره، بيد أن غاية الدولة ليست الإرهاب و الإذلال، بل هى بسط العدالة و الحرية بين الناس، و الحرية خير دائماً حتى فى الساعات التى تجلب فيها ضرر أو تسبب اضطرابا، فأن القوانين التى تحكم الأفواه و تحطم الأقلام تهدم نفسها بنفسها و الظلم و أن طال مآله الزوار، و ليس شيء أضر

على المجتمع من حكومة أمتد سلطانها من أجسام النـــــاس و أعمالهم إلى عواطفهم و أفكارهم، ففى الوقت الذى كـــان يلغى فيه "هوبس" حقوق الناس كـــــان "اســـبينوزا" يجـــهر بالحرية و الديمقراطية، كانت دعوته قويـــة إلـــى حـــد أن أسمعت "روسو" و رجال الثورة الفرنسية[1].

و بعد: فهذه هى الفلسفة الاسيبوزية فى جملتـــها، و ليـــس هناك نظرية فلسفية صادقت مــــا صــــادقت مـــن تقريـــر و احترام و إعجاب و احتقار و ازدراء و أولت تـــأويلات مختلفة فرمى صاحبها من بعــــض معاصريـــه بالزندقـــة و الإلحاد لأنه ينكر العناية الإلهية و العلـــل الغائيـــة و لا يعترف بما لله من حريـــة و اختيـــار و يرفـــض الكتـــب السماوية المقدسة و ما جاء فيها من آيات و يقول بمذهـــب وحدة الوجود الذى لا يدع للإنسان مكاناً بجـــانب الله فـــى

---

[1] ص ١٥١ .دروس فى تاريخ الفلســفة و ص ١٠٣ قصـــة الفلســفة الحديثة.

حين أن المناصرين له و المؤيديـــن لآرائـــه و المعجبيـــن بأفكاره كانوا يرونه مملوءاً إيمانا و عقيدة و يعدونـــه مـــن أكثر المفكرين نجاحاً فى التوفيق بين الفلسفة و الدين لـــهذا لا يبدو غريباً أن يبقى مذهبه فى هولندا على صورة حركة دينية و أن يحد رجال الدين فى نشر آرائه فـــى الســعادة و الحياة الأزلية بلغة تناسب عقول العامة، كما يذهب فريق آخر إلى أن الرجل شوه الأفكار "الديكارتية" و عدل فيـــها، و ليس بينه و بين "ديكارت" أية صلة فى حيـــن أن فريقـــاً آخر يقـــرر (أن لـــدى "ديكـــارت" كـــل بـــذور المذهـــب الاسبينوزى) و من الغريب أن فلسفته "اسبينوزا" ظلت قرناً كاملاً نسياً منسياً فلم يهتم بها أحد أو يلتفت إليها فيلســـوف حتى جاءت الحركة "الرومانتكية" الألمانية فى نهاية القـــرن الثامن عشر حيث أعاد الشاعر و الناقد الكبـــير "ليســـنج" "لسبينوزا" شهرته و ذكره، و منذ ذلك الوقـــت أخـــذ هـــذا الفيلسوف مكانه اللائق به فى تاريخ الفكر الفلسفى و تـــأثر بفلسفته العديد من الفلاسفة و المفكرين فى كل أنحاء أوربـــا

و قد أقيم له – تخليداً له – تمثال فى مدينـــة لاهـــاى عـــام ١٨٨٢ و ذلك بعدً وفاته بأكثر من قرن من الزمان[١].

[١] ص ١٤٥ . د/ محمود زقزوق "دراسات فى الفلسفة الحديثة.

ليبنتـــز

لا نظن أن بين مفكرى القرن السابع عشر، بل و التـــاريخ الحديث بأجمعه شخصية أعرض أو أشمس من الفيلســـوف "ليبننز". فقد أبى إلا أن يلم بأطراف البحث الإنسانى قديمها و جديدها، و أن يتعمق فيها و يدلى برأى خاص، فأحـــــاط بعلوم القانون و التشريع و من فيها سنناً صالحة، و عرض للمشاكل السياسية و شغل بها علماً و عملاً، و كـــــان لـــه بالتاريخ غرام كبير دفعه لأن يكتب فيه بحوثاً فريـــدة فـــى بابها، و أوغل فى العلوم الرياضية إلى حد إنه لـــم يـــدع نظرية إلا بحثها و لا مبدأ إلا حبره و أنتهى فيها إلى نتـائج لا تزال ذخيرة الإنسانية، حتى اليوم و لم يهمنى التجربـــة مع كل هذا، بل أنخرط فى سلك بعض الجمعيات العلميـــة العربية و قام ببعض التجارب فى الكيمياء و الطبيعة و أما الفلسفة و التدين فكانا شغله الشاغل و عمله الدائـــم فضـــم آراء القدامى إلى المحدثين، و ما أشـــبهه فـــى هـــذا بــــ

"أرسطو" فهما إلى حد ما من أصحاب دوائر المعـــارف[1].
فلقد كانت له جهوَد خلاقه و ابتكارات هامـــة فـــى شـــتى
مجالات العلوم فقد أكتشف على ســـبيل المثـــال حســـاب
التفاضل و التكامل فى مجال الرياضيات و فى علم الطبيعة
كان أول من تحدث عن قانون "بقاء الطاقة" و فى المنطـــق
يعد من مؤسسى المنطق الحديث و فوق ذلـــك كـــانت لـــه
أعمال مبتكرة فى علوم النفـــس و اللاهـــوت و الاقتصـــاد
و السياسة و التاريخ و القانون فلقد كان فيلســـوفاً عظيمـــاً
و لم يكن لهذا الشمول فى فكره "ليبتنز" أى أثر سلبى علـــى
عمق تفكيره و أصالته و هناك على الأقـــل مجـــالاً مـــن
مجالات المشار إليها و هى: الفلسفة و الرياضيات - كـــان
فيهما نداً لأعظم العبقريات التى ظهرت فيـــهما فـــى كـــل
العصور.

[1] ص ١٥٩ دروس فى تاريخ الفلسفة.

و قد كان هدفه فى مجال الفلسفة هو التوفيق بين النظريـــات المختلفة القائمة و الوصول بها إلى تناسق شامل و فى ذلــك يقول:-

(لقد تكشف لى بسبق جديد و عندئذ تكشف لى الأشياء عـــن جوانب جديدة فى داخلها و هذا النسق يربط "أفلاطون" بـــــ "سقراط" و "أرسطو" بـــ "ديكارت" و المدرسين بالفلاســـفة المحدثين و اللاهوت و الأخلاق بالعقل و يأخذ من كل شىء أجمل ما فيه و يطوره تطويرا لم يصل إليه أحد من قبله)[1].

و لم يقف فيلسوفاً عند حد الإفادة من خير ما كتبه الفلاســفة السابقون و إنما أضاف للفلسفة مجموعة من الحقائق المهمة و كان له فضل السبق إلى كثير من الآراء و النظريات التى تبناها الفلاسفة و المفكرين من بعده و عملوا على تطويرها.

---

[1] ص ١٤٨: د/محمود زقزوق دراسات فى الفلسفة الحديثة.

فقد سبق الفيلسوف (كانت) إلـــى القــول بمثاليـــة الزمـــان و المكان و التفرقةً بين الشيء بـــالذات و عـــالم الظواهـــر و عرف قبل "بركلى" و "فتشه" أن كل حقيقة واقعة هى فـــى أساسها ذات طبيعة عقلية أو روحية: و هو أول من قال فـــى علم النفس باللا شعور.

حياته و مصنفاته

حياته: ولد "ليبتنز" سنه ١٦٤٦ بمدينة بلينتزج بألمانيا فـــى وسط علمى حببه فى العلم و الدراسة منـــذ نعومــة أظافره فقد فتح أمامه أبوه و هو الأستاذ فى الجامعـة باب الأدب و التاريخ و علمه اللاتينية و اليونانيــــة، و أراد أن يتخصص فى الفقه و القانون و لكن حـــب الابن الزائد للاستطلاع حمله على أن يقرأ كل شـــىء و يقف على كل شىء فدرس الفلسفة و الرياضيـــات على كبار الأستاذة المتخصصين المعاصرين و تتبــع مفكرى اليونان و المسيحيين ثم أنتقل إلى مشـــــاهير المحدثين أمثال "بيكـــون" و "جـــاليليو" و "ديكـــارت" و فى خلال مرحلة التكوين لم يتردد فـــى أن يكتـــب و يؤلف و ظهرت له عدة رسائل، و لقد حصل علـــى الدكتوراه و هو فى العشرين من عمره و قد اتجــــه إلى العمل السياسى و قد أقام بفرنسا عـــدة ســنوات

تعرف من خلالها على مشاهير العلماء و المفكريـــن
و الفلاسفة كما تعرف على شتى الاتجاهات الفلســفية
و قد كان لاتصالاته الواسعة فى تلك الفترة أثر كبـير
على تطوره العقلى و قد شغل "ليبتنز" منصب أميـــن
مكتبه "هاتوفر" وصل فى هذا المنصب حتى وفاته[1].

مصنفاته: لقد خلف "ليبتنز" ثروة علمية طائلة تبلـــغ عـــدا
الرسائل و المقالات الصحفية – مائة مؤلف أو يزيـــد
غير أنه لم ينشر منها أثناء حياته إلا النذر اليســـير،
و لا يزال قدر منها مخطوطاً إلى اليوم، و قد كتـــب
بعضها بالألمانية – لغة الوطنية – و البعض الآخـــر
باللاتينية لغة العلم فى ذلك العهد و طائفة غير قليلـــة
باللغة الفرنسية لغة الثقافة الجديدة الفتى تعلمها بعـــد
أن جاوز العشرين و كانت عزيزة عليه على أنه فـــى

[1] راجع :ص١٥٨ : دروس فى تاريخ الفلسفة و ص ١٥٠ من دراسات فى الفلسفة الحديثة .د/ زقزوق.

نزعته العالمية ما كان يتقيد بلغة خاصة، بـــل كـــان يرجو أن يضع لغة علمية يستعملها الجميـــع علـــى اختلاف أجناسهم و شعوبهم.

و تدور مؤلفاته فى جملتها حول الدراسات التى أشتغل بــها، فمنها ما يتصل بالقانون و التاريخ و السياسة و الدين و مـــا يبحث الفلسفة و الرياضيات و يهمنا هنا كتبه الفلسفية و فـــى مقدمتها:

أولاً: مذهب جديد فى طبيعة الجواهر و اتصالـــــها، و قـــد وضح فيه العلاقة بين الجسم و النفس و عرض نظرية "التناسق الأزلى" من أجل مظاهرها، و بين أثر الله فى الكون.

ثانياً: "مقالات جديدة فى العقل البشرى": و هذا الكتاب من أهم مؤلفاته الفلسفية و أعظمها و قد كتبه ليرد به على نظريه "لوك" فى المعرفة و يعارض كتابه المشهور "مقاله فى العقل البشرى" إلا أن الفيلسوف الإنجليزى قد مات و لما يظهر ليبنتز مؤلفاته ففضل أن يبقى مخطوطاً كى لا يناقش علناً من لا يستطيع الإجابة و لم ينشر إلا بعد وفاته بنحو نصف قرن .

ثالثاً: "العدالة الإلهية": و هو أشهر كتبه و الوحيد الذى نشر سنة ١٧١٠ و يتعرض فيه لمشكلة الخير و الشر و الخير و الاختيار.

رابعاً: "مبعث الذرات الروحية" : و هذا الكتاب آخر مصنفاته فقد أتمه سنة ١٧١٤ و أهداه إلى الأسير "أوجين" الذى اغتبط به اغتباطاً كبيراً و عده من أغلى

تحفه النفيسة و فى هذا الكتاب يلخص "ليبتــــنز" كــل فلسفته تلخيصاً دقيقاً شاملاً.

خامساً: رسالة فى الميتافيزيقا.

سادساً: نسق جديد فى الطبيعة[1]، هذا و قد ترجمت بعـــض أعمال هذا الفيلسوف إلى اللغة العربية.

---

[1] نظر ص ١٣٨ ج ٣ تاريخ الفلسفة العربية.

فلسفة ليبنتز

لعل أخص خصائص الفلسفة الليبنتزية أمران: هما التوفيـق و الابتكار، فبعد أن قرأ "ليبتنز" كل شيء و ألم بـــأطراف البحث الإنسانى أخذ يوفق بيــن متنــوع الآراء و متعــدد المذاهب، هذا إلى أنه بفطرته كان ميـــالاً إلـــى الوصــل و الربط بين الأطراف المتباعدة و ما كان يهتم بنقائص من سبقوه، يقدر ما كان يهتم بحسناتهم و تتسم فلسفته و بحوثــه بصفة التوفيق المستمرة، فهو يوفق بين المـــادة و الـــروح و الفاعلية و الغائية و الطبيعـــة و الرياضـــة و المنطــق و الميتافيزيقا و الفطرة و الاكتساب و الفلسفة و الديـــن و لقد جمع بين المتعارضين وواءم بيـــن القديـــم و الحديــث ووحد فى شخصه "ديكارت" و "أرسطو طاليس" و نـــهض بالقديس "توماس" و الفلسفة المسيحية عامة بعد أن أعــوض عنها المتحدثون و رجال عصر النهضة و مع هذا كله فقــد كان له رأى خاص و ابتكر الجديد و أضحـــى ذا فلســفة قائمة بذاتها و لقد بدأ الفلسفة و هو ديكارتى مخلص فأنـــه

سرعان ما رسم لنفسه منهجاً خاصاً، و الفلسفة و العلم فـــى رأيه فى تقدم مطرد يساهم كل فيه بنصيب فالمشارفة خلقوا لنا الشىء الكثير عن فكرة الألوهية، و اليونـــان : اهتـــدوا إلى تكوين العلم ووسائل البرهنة و الرومان وضعوا مبادئ القانون و التشريع و المدرسون استخدموا الفلسفة استخداماً صالحاً فى نصرة الدين و هاهم أولاً المحدثون يتوســـعون فى طرائق البحث التجريبى و النظرى، فلنستفد من كل هذا و لنؤدى واجبنا أن استطعنا فى تنشيط هذه الحركة الفكرية الإنسانية[1].

لقد شغل فيلسوفنا بنفس المشاكل التى شـــغلت معاصريـــه فبحث عن الحركة و أسبابها و التفسير و علله و نظر فـــى أصل المعلومات و طريق تكوينها و بين الصلة بين البارى و مخلوقاته، و هذه هى النقاط الثلاث التى تتلخـــص فيـــها فلسفته، فهى تشتمل على ثلاث نظريات رئيسية:

---

[1] ص ١٦٠ دروس فى تاريخ الفلسفة.

- نظرية الجوهر .
- نظريةَ المعرفة .
- نظرية الألوهية .

هذا و سوف نقتصر هنا على عرض موجز لآراء "ليبتنز" الميتافيزيقة موضحين كيف توصل إلى نظريته الفلسفية.

نظرية الذرات الروحية

و قف فيلسوفنا من "اسيبنوزا" موقف النقيض فلم يذهـــب معه فيما ذهب إلية من وحده الكون، بل نـــادى بمذهـب التعدد الذى يرى فى الكون حقائق فردية لا نهايـــة لـــها، و ليس كل ما فيه حقيقـــة واحـــدة كمـــا يدعـــى مذهـــب "الواحدية" الذى أخذ به "اسيبنوزا"، و لكن "ليبتنز" حيـــن نادى بمذهب تعدد الحقيقة التى يتألف منها الكون لم يـــرد أن يعود إلى فلسفة الذريين التى تقول أن العالم مكون مـن ذرات مادية لا أكثر و لا أقل و أن هذه الـــذرات تسـير سيراً آلياً لا يقصد إلى عرض و لا يتجه إلى غاية، إنمـــا حاول أن يجعل من العالم كائناً حياً عاقلاً شاعراً يعلم أيـن يسير فأخرج نظريته فى الذرات الروحية التى ســنتناولها الآن بالشرح.

يزعم "ليبتنز" أن العالم يتكون من ذرات أولية روحية لا فرق فى ذلك بين أرواح و أجسام و هى تختلف عن العنصر الذى فرضه "سيبنوزا" جوهراً للكون بأنها ذرات فردية لانهائية من حيث عددها و كيفها.

أما مادة "اسيبنوزا" فهى عنصر واحد متجانس، كذلك تختلف عن الذرات التى زعمها "ديمقريطس" أصل للكون بأنها ليست مادة ميتة بل هى كلها قوة و حياة و حركة، و ليست هذه الذرات الروحية صورة واحدة منكرة، بل أنها متباينة مختلفة إلى أقصى حدود التباين و الاختلاف فى الكيف و الفاعلية حتى أنك لا تجد فى الكون كله ذرتين متشابهتين، لأنه لو كان ذلك لكان خلق إحداهما عبثاً لا مبرر له، و على الرغم من أن الذرات الروحية كلها تصور فى نفسها شيئاً واحداً هو الكون إلا أنها مع ذلك مختلفة لا يتشابه فيها اثنتان، كما لو وضعت عدداً من المرايا حول مدينة متخ فان كل مرآة تعكس صورة

تخالف ما تعكسه الأخرى مع أن الشيء المنعكس واحد لم يتغير، و للذرة الروحية خاصتان:

فهى فى آن واحد شاملة الكون و منعزلة عنه، فهى من ناحية وحدات بسيطة أى (ليست مركبة) مستقلة إحداهما عن الأخرى و ليس لها نوافذ تطل منها على العالم الخارجى أو ينقذ لها شيء منه، خلالها، و هى لا يمكن أن توجد من عدم كما يستحيل أن تعدم بعد وجود إلا بإرادة الله، و كل واحد منها عالم متغير يسير بمقتضى طائفة من القوانين كما لو لم يكن فى الوجود غيرها سوى الله، و هى من ناحية أخرى شاملة للكون، بحيث لو استطعت أن تصل إلى فهم واحد منها فقد فهمت الكون بأسرة[1]. فكل ذرة منها تحمل ماضى العالم و مستقبلة.

و على الرغم من أن هذه الذرات الروحية مستقلة بعضها عن بعض فهى متداخلة متماسكة متصلة أشد ما يكون

---

[1] ص ١٢١ قصة الفلسفة الحديثة. أحمد أمين .

الاتصال و هذا ما يسميه "ليبتنز" بقانون الاستمرار، فليس في نظامنا تشويش أو اضطراب أو تفكك، أبدأ من المادة و أصعد إلى العقل المفكر تجد طريقاً واحدة متصلة يتزايد فيها الإدراك شيئاً فشيئاً في تدرج غير محسوس و سر من النبات إلى الإنسان تر أنك إنما تسلك سبيلاً ليس فيها حوائى أو عثرات، بل إنها تعلو بك قليلاً قليلاً حتى تنتهى إلى قمة الجبل دون أن تشعر بالصعود.

و يشير "ليبتنز" إلى مراحل ثلاث يجتازها المستعرض فى طريقه من الكائنات الدنيا إلى طبقاتها العليا، فذرات الطبقة السفلى، أى ذرات النبات و الجماد تدرك و كفى، فهى أشبه ما تكون بالأحياء الغافلة أو النائمة التى لا يرتفع إدراكها إلى درجة الشعور.

و المرتبة التالية لتلك هى ذرات الحيوان و لها فوق الإدراك ذاكرة، و لكنها لا تسمو إلى درجة العقل

و إدراكها شبيه بالأحلام الغامضة. ثم تجـــىء الكائنـــات البشرية فوق تلك المرتبة و هـــى التـــى وهبـــت عقـــلاً و شعوراً بالذات و يذكر "ليبتنز" أن الله هو أســـس هـــذه المراتب جميعاً، فبينما تراها تتفاوت فى إدراكها غموضـــاً ووضوحاً إذا بإدراكاته هو واضحة وضوحاً مطلقاً.

و ليست هذه الذرات مطمئنة إلى مراتبها راضية بمقامـها، بل تسعى كل واحدة منها سعياً متواصـــلاً إلـــى السـمو و الارتفاع نحو الكمال لا ترضى به بديلاً. فـــهى دائبـــة أبداً، لا تدخر وسعاً لكى تحقق هذا الكمال الأسس بانتقالها من مرتبة إلى مرتبة حتى تصل إلى هدفـــها المنشـــود، و ليس من شك فى أن قول "ليبتنز" هذا كان إرهاقا لمذهـــب النشوء و الارتقاء الذى جاء به "دارون" فيما بعد[١].

---

[١] ص ١٢٤ المصدر السابق.

التناسق الأزلى

إذا كانت هذه الذرات الروحية التى تتألف منـــها الكـــون بأسره عن عوالم صغيرة مستقلة لا يؤثـــر بعضـــها فـــى بعض، فبماذا تعلل هذا النظام الدقيق الذى يشمل الوجـــود أن لم يكن بين جزئياته تآلف و انسجام؟

يجيب "ليبتنز" على ذلك بأنه قانون التناسق الأزلى، فقـــد ركبت تلك الذرات منذ الأزل بحيث تسير الواحدة موازيـــة للأخرى ، و على الرغم من تفرقها و انفصالها فهى تعمل جميعاً فى توافق دقيق حتى لتبدو كأن بعضها يعتمد علـــى بعض . أليست كلها تسير طوح إدارة إلهيـــة عليـــا؟ إذن فهى تسير فى نظـــام و أتســـاق لا تنـــاقض بينـــهما و لا اضطراب: و هذا التوفيق بين استقلال الذرات و اتســـاقها فى نظام واحد أشبه شيء بفرقة من رجال الموسيقى كـــل يقوم بدورة مستقلاً و مع ذلك فهم يعملـــون فـــى تنـــاغم منسجم ما دام كل منهم يعزف وفق المذكرة الموســـيقية،

فإذا ما سمعهم مستمع فى وقت واحد خط فى غرفتهم تآلفاً عجيباً و بهذه النظرية نفسها قد عالج "ليبنتز" الفلاسفة بين العقل و المادة أى بين الروح و الحسد فالروح تتبع قوانين خاصة و الجسد كذلك يتبع ما له من قوانين دون أن يؤثـو أحدهما فى سير الآخر فهماً يتلاقيان فى تناسق بلغ مـــن الدقة حداً بعيداً يستحيل معه الخطأ فكل خلجة عقلية يقابلها وضع من الجسد كما لو كانت العلاقة بينهما علاقة العلـــة بالمعلول.

و لا يمكن تعليل هذا الاتفاق المستمر بين العقل و الجســد إلا بإحدى ثلاث يسوق لها "ليبتنز" تشبيهه المشهور:
بأنهما كساعتين تسيران معاً فى دقة تامة و لا يكون ذلـــك إلا بفروض ثلاثة:-

١- أن يكون للساعتين آلة واحدة تديرهما معاً فـــى آن واحد.

٢- أن يكون هناك شخص يعادل بينهما من آن إلى آن بحيث يوفق بين زمنيهما.

٣- أو قد تكون الساعتان طبيعياً بدقة تامة يستحيل معها الخطأ .

فأما الفرض الأول فمردود لأن العقل و الجسم لا يؤثر فيهما مؤثر بعينة فى وقت واحد.

و أما الفرض الثانى فمردود كذلك لأنه يفرض تدخلاً مستمراً فى علاقة العقل و الجسم.

و أما الثالث فإن "ليبتنز" يراه جديراً ينظمه الخالق و كامل قدرته، أى أ، كل شطر يسير فى طريقة الخاصة فلا يكون بين الشطرين إختلال أو اضطراب و هذا التآلف موجود منذ الأزل و هو ما يسميه بنظرية التناسق الأزلى.

نظرية المعرفة

لقد وضع "ديكارت" دعائم المذهب العقلى الحديث و قال بالفطرة ورد الحقائق كلها إلى العلم الإلهى، و قرر أن الطفل لا يولد إلا و قد ذوده الله بالحقائق الثابتة و المبادئ العامة، فليست النفس إذن صحيفة بيضاء و لا لوحة خالية من النقوش، و لكن فلاسفة الإنجليز و فى مقدمتهم "لوك" لم يرقهم هذا الحل و رموه بالتقصير أولاً لأنه أن يفسر المعرفة يحملها على علم الله، و بالضعف ثانياً لأنه ينلقض الواقع، فأن المبادئ العامة لا تبدو لدى الأطفال و الهمجيين، كما تبين لدى الشيوخ و المتحضرين، و ذهبوا إلى أنه لا طريق إلى المعرفة إلا التجربة سواء أكانت خارجية أم داخلية، فكل معلوماتنا مستمدة من عالم الحس مباشرة أو بواسطة، ذلك لأن الذهن قد يستخلص أموراً مما تسليه عليه الحواس بواسطة التفكير و التأمل الباطنى (فليس فى العقل أذن شىء إلا و قد مر بالحواس).

إذاً هذين المذهبين المتقابلين: مذهب الفطرة و مذهب التجربة لم ير "ليبنتز" يد من أن يوفق بينهما و لذا فقد أنتهى إلى حل وسط يأخذ بطرف من رأى "ديكارت" و طرف من نظرية "لوك" و قال بالفطرة مع الأول و لكنه أراد بها معنى خاصاً، فاعتبر الأفكار و المبادئ العامة مجرد استعدادات كامنة فى النفس لا تشعر بها و بهذا يسقط اعتراض "لوك" المتعلق بالأطفال والهمجيين فأن هؤلاء مذودون كغيرهم بالمبادئ العامة و إنما ينقصهم الانتباه ليستحضروها و كم من أفكار موجود، فى الذهن دون أن تشعر بها، غير أن هذه الاستعدادات الفطرية فى حاجة إلى مرتبة الشعور و فى هذا ما يثبت أن نظرية "لوك" ليست خطأ كلها. بل فيها قدر من الصواب لا ينكر. فيأخذ "ايبنتز" إذن الفطرة ليفسر يقين الحقائق و عمومها و التجربة ليبين وظائف الحواس و أثرها، و لولا الفطرة ما أخذنا من أية صورة حسية و لولا التجربة لبقيت الاستعدادات الكامنة فى حال سلبية او شبه عدمية و إذا

كان النظر السطحى يحملنا على اعتقاد أن نعمل و نفكـــــر تحت تأثير الأشياء فأن التأمل العميق يعرفنا أن كل شـــىء حتى الإدراكات و الانفعالات إنما تنبعث من قرارة نفوســنا فى فطرة تامة.

ليست فكرة الحقائق الكامنة فى النفس التى اعتمـــد عليـــها "ليبنتز" فى حل مشكلة المعرفة و التوفيق بيـــن "ديكـــارت" و "لوك" بجديدة فى بابها فقد سبقه إليها الفيلسوف اليونـــانى الشهير "أفلاطون" الذى يرى أن النفس و قد عاشـــت فـــى عالم المثل قبل أن تتصل بالجسم لا تزال محتفظة بذكريات ذلك العهد ثم تجىء الصور الحسية فتذكرها بمـــا كـــانت تعرفه من قبل فالمعرفة عند "ليبنتز" هى ضرب من التذكـر الأفلاطونى، و إن كان "ليبنتز" لا يمنح العقل ذلك السـلطان الذى منحه أفلاطون إياه و لكن الجديـــد لـــدى الفيلســـوف الألمانى هو القول بنوع الإدراك و التفرقـــة بينـــه و بيـــن الشعور فالذهن فى عمل مستمر و لا تنتقل النفس من حـــال

إلى أخرى فجأة مطلقاً، فنحن لا نستيقظ دفعة واحـــدة بـــل بالتدريج و أثناء النوم يقوم الذهن بأعمال لا تشـــعر بـــها و رب صوت ضئيل تنتبه إليه يســـمعه، و مـــا القضايـــا السلمية و المبادئ الثابتة التى تسلم بـــها جميعـــاً إلا إدراك صاحبه شعور تام فالشعور إذن أســـمى مراتـــب الإدراك، و ليس هناك شك فى أن "ليبتنز" أول من نبـــه إلـــى هـــذه التفرقة و مهد بهذه النظرية "العقل الباطن" التى كـــان لـــها شأن يذكر فى الأبحاث السيكولوجية فى أخريـــات القـــرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين[1] و بعد فلقد لاحظنـــا بعد الذى قدمناه أن فلسفة "ليبتنز" تلتقى مع فلسفة "ديكارت" فى نواح كثيرة.

فهى عقلية مثلها تعتبر العقل أساس المعـــارف الإنســـانية و عمادها و روحية ترى فـــى الـــروح أوضـــح الحقـــائق

---

[1] ص ١٧٠-١٧١: دروس فى تاريخ الفلسفة . إبراهيم مدكور.

و أثبتها، و مؤلمة تبحث فى كمال الإله جـل شـأنه عـن طريق سر الكون.

إلا أن "ديكارت" يقف عند تفكيره الخاص و يقصر نفسـه على دائرة معينة فى حين أن "ليبتنز" يوسع مجـال أفقـه و دائرة أبحاثه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً و يغذى أبحاثـه بأكمل نظريات التاريخ القديم و المتوسط و الحديث و بهذا استطاع أن يتدارك ما فات استعادة و يتم ما بدأه و يقـوم و يقدم فلسفة خصبة منسقة النواحى و الأطراف.

الفهرس